تاريخ العرب في الأندلس

د.حسن مراد

الكتاب: تاريخ العرب في الأندلس

الكاتب: د.حسن مراد

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

مراد ، حسن

تاريخ العرب في الأندلس/ حسن مراد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٢٧٦ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٦٠٦ / ٢٠٢١

تاريخ العرب في الأندلس

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدّمة

كان من حظي أن عُهد إليّ بتدريس تاريخ العرب في الأندلس بمدرسة دار العلوم العليا، وقد وجدت أنه ليس لطلبة هذه المدرسة كتاب يناسبهم يرجعون إليه في تحصيل تلك المادة فكتبت لهم مذاكرت هي خلاصة المحاضرات التي ألقيتها عليهم، وقد وجدت تلك المذكرة بعد مراجعتها صالحة لأن تكون كتابا مدرسيا في هذه المادة فآثرت إعادة طبعها بعد تهذيبها رجاء أن يعم النفع بها.

وقد بنيت هذه المذكرة على معلومات أُسقيتها من كتب عربية وأخرى أفرنجية؛ فمن ذلك: نفح الطيب للمقري، وصبح الأعشى للقلقشندي، والعرب في الأندلس للكيلاني، والإسلام للأمير علي، والعرب في إسبانيا للينبول، وإسبانيا الإسلامية لدوزي، والقاموس القديم الصغير ورسالة الأدب في الأندلس للأستاذ الإسكندري، وكتاب المطالعة للمدارس الثانوية.

حسن مراد

الباب الأول

الأندلس

شبه جزيرة تقع جنوب غربي أوروبا، وتقابل بر العدوة من بلاد الغرب وبينهما بحر الزقاق الذي هو فم بحر الروم، ملكها الواندال قبل العرب، فقيل لها واندالوسيا، وقال العرب عن الواندال: الأندلش بالشين المعجمة؛ فسُميت البلاد بهذا الاسم ثم عُرّب بالسين المهملة فصار الأندلس، وسماها العرب أيضا القندلش، ثم عُرِّبت بإبدال القاف همزة والشين المعجمة سينا مهملة. وأول من عرفها الإغريق، وكتب عنها هيكاتيوس حوالي عام ٥٠٠ ق.م، وسماها أيبريا (أبارية عند العرب) واقتصر هذا الاسم على شرقي شبه الجزيرة، أما الجزء الغربي فكان يقال له تارتيسي، وتسميه الإغريق شبه الجزيرة أيبريا مأخوذة من نهر أيبروس أو أبرو ولما دخلها الرومان قالوا عنها هسبانيا

أهل الأندلس الأقدمون: أول سكانها الأباريون الذين كانوا يعيشون على جانبي جبال البرنات وشغلوا جنوب بلاد غالة حتى نهر الرون، ثم دخلها الكلت واندمج بعضهم في جزء من السكان الأصليين فكوّنوا شعبا قيل له كلتي أباري وسكنوا الهضاب الواقعة في قلب البلاد.. أما القبائل الأبارية التي لم تندمج في غيرها فسكنت السفوح الجنوبية لجبال البرنات والساحل الشمالي للأندلس، وأهم تلك القبائل: الأستورقيون والكانتابريون، وكذلك من حافظ من الكلت على جنسيته فقد سكن إقليم جاليقية في شمال غربي الأندلس.

ولقد دخل الأندلس غير ما ذكرنا: الفينيقيون والقارطاجيون وأقاموا بقادش وقرطاجة الجديدة، بينما كانت ساجنتم أهم المستعمرات الإغريقية، ولما استولى الرومان على الأندلس دخلوها في جموع كبيرة كان لهم أثر في مدنية البلاد ولغتها؛ فظهر من أهل البلاد كُتّاب كانت لهم شهرة في عهد الإمبراطورية الرومانية كالأخوين لوكان، ومارتيال سينكا، وسيليوس أتاليكوس، وغيرهم.. ومن أثر حكم الرومان أنهم أنسوا أهل البلاد شجاعتهم الأولى وحبهم للحروب والاستماتة في الذود عنها. والثابت في نظرية تشعب الشعوب أن سكان جنوب الأندلس الأولين من الجنس السامي الذي نزح من غرب آسيا قبل الميلاد بآلاف السنين إلى ضفتي دجلة والفرات وفينيقيا وفلسطين ومصر وقرطاجة وإسبانيا، ولما دخلها الرومان وهم من الجنس الهندي الأوروبي أو الأبيض الشمالي؛ فاختلطت الجنسيات، ثم فتحها العرب وهم ساميون في أصلهم ونشروا بها دينا جديدا ولغة جديدة أصبح أهلها خليطا في جنسيتهم على ديانات مختلفة، ولم يكن للبلاد قومية مسيحية حتى كان عهد فرديناند وإيزابلا في القرن الخامس عشر من الميلاد.

وصف الأندلس كما رآها العرب

والمراد بكتابته على هذا النحو إثبات وصف جغرافي لهم

حدودها: جاء في تقويم البلدان مع إيجاز – جزيرة الأندلس على شكل مثلث ركن جنوبي غربي، وهناك جزيزة قادس وفم بحر الزقاق ورك شرقي بين طركونة وبين برشلونة، وهي جنوبية وبالقرب من بلنش وطرطوشة وجزيرة ميورقة وركن شمالي بميله إلى البحر المحيط وبالقرب منه

مدينة شنتياقوه، وحد الأندلس الشمالي يمتد إلى الجبل المعروف بجبل ألبرت الحاجز بين الأندلس وبين أرض تعرف بالأرض الكبيرة (فرنسا)، وقال ابن سعيد: قال الحجازي طول الأندلس من جبل ألبرت إلى أشبونة ألف ميل وعرض وسطه من بحر الزقاق إلى البحر المحيط عند طليطلة وجبل ألبرت ستة عشر يوما، وقيل أن طوله غربا وشرقا من أشبونة إلى أريونة شهر، وفي وسط الأندلس جبال تمتد من الشرق إلى الغرب يقال لها جبال الشارة.

قواعد الأندلس

الأولى: – غرناطة – بفتح الغين المعجمة وسكون الراء، ويقال أغرناطة بهمزة مفتوحة في أولها وهي في جنوب الأندلس وممتلكتها في الجنوب والشرق عن مملكة قرطبة وبينها وبين قرطبة خمسة أيام، وغرناطة في نهاية الحصانة وغاية النزاهة تشبه دمشق من الشام وتشرف على غوطتها، أنهارها تنصب من جبل الثلج ولها أشجار وأنهار وثمار ومياه مسيرة يومين، ولها ثلاثة عشر بابا منها: باب الكحل، وباب الرخاء، وباب المرضى، وغيرها.. وحولها أربعة أرباض: ربض الفخارين، وربض الأجل (وهو كثير القصور والبساتين)، وربض البيازين (وهو كثير العمارة يخرج منه نحو خمسة عشر ألف مقاتل وهو مستقل بحكامه وقضائه)، وربض الرملة.. وجامع غرناطة من أبدع المساجد محكم البناء تحف به دكاكين الشهود والعطارين قام سقفه على أعمدة حسان وبها مساجد لا تكاد تحصى.

وهي شديدة البرد شتاءً، ويقول ابن صدره الشاعر في ذلك:

أحل لنا ترك الصلاة بأرضكم وشرب الحميا وهي شئ محرم

فـرارًا إلـى نــار الجحيــم لأنهــا علينــا مـــن شـكـــير وأرحـــم

لـئن كـان ربي مـدخلي في جهـنم ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

وقد صارت غرناطة قاعدة ملك الإسلام بالأندلس بيد ملوكها من بني الأحمر الآتي ذكرهم في الكلام على ملوكها.

ومقر سلطانها منها القصبة الحمراء والقصبة القلعة وتسمى حمراء غرناطة وهي قلعة عالية شديدة الامتناع، وبجامعها الثريات الفضية معلقة وبحائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة في جملة ما نمق به من ذهب وفضة ومنبره من العاج والأبنوس.

ومن مدن غرناطة المرية، وهي مدينة مسورة على حافة بحر الزقاق ولها بر فضي وساحل تبري وبحر زبرجدي، ويعمل بها من الحرير ما يفوق الجمال ومنها بلش.

وليس بالأندلس أكثر تينا وعنبا منها: ومنها مالقة على بحر الزقاق، ودار صناعة لإنشاء المراكب، وبها الفخار المذهب، ومنها لشبونه وجبل إلف وهو الذي نزل به طارق عند فتح الأندلس.

والثانية: أشبونة، وعند بعض المسافرين أن أولها لام وهي في غربي الأندلس ولها بساتين وثمار وبزاتها خيار البزاة. وهي الآن قاعدة مملكة البرتغال ومن مدنها باجة وهي أرض زرع وضرع.

الثالثة: بطليموس مدينة في غرب الأندلس وهي عظيمة بسيط من الأرض مخضر على جانب النهر.

ولله دوحات تخفك بينها تفجر واديها كما شقق البرد، ومن مضاعفاتها مارده: واتخذها ملوك الأندلس قبل الإسلام سريرا للملك.

الرابعة إشبيلية: ومعناها المدينة المنبسطة ومملكتها غربي قرطبة وكورها شريش، وإليها ينسب الشريشي شارح المقامات الحريرية، ومنها كورة طريف، ومنها شلب وبها قصر الشراخيب وسلم على قصر الشراخيب عن فتى له أبدا شوق إلى ذلك القصر

الخامسة قرطبة: ومملكتها شرقي إشبيلية وجنوب طليطلة، ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع وهي أعظم مدن الأندلس وعليها سور ضخم من حجر، ولها سبعة أبواب، وبلغت عدة مساجدها ألفا وستمائة مسجدا. وحماماتها تسعمائة حماما، ومن مضافاتها مدينة الزهراء بناها الناصر الأموي غربي قرطبة في سفح جبل ومنها حصن مراد وكورة غافق.

السادسة: طليطلة كانت قاعدة للأندلسيين قديما، وبها كان كرسي ملك لزريق آخر ملوك القوطة الذي انتزعها المسلمون منه، وهي من أمنع البلاد مبنية على جبل عال تحدق بها الاشجار والرمان بها عدة أنواع وبينها وبين جبل ألبرت نصف شهر..

ومن مضافاتها: **مدينة وليد** (وهي غربي طليطلة ومن أحسن المدن)، ومدينة الفرج (واديها يقال له وادي الحجارة) ومدينة سالم (وبها قبر المنصور بن عامر).

السابعة: جيان ومملكتها بين غرناطة وطليطلة، وهي من أكثر مدن الأندلس خصبا، وكانت بيد بني الأحمر (أصحاب غرناطة) حتى أخذتها

الفرنجة منهم بالسيف بعد حصار طويل ومن مدنها آبدة وأحدثت في دولة بني أمية بالأندلس ولها عين تسمى الزعفران.

الثامنة: مرسية وهي إسلامية محدثة بنيت في أيام الأمويين الأندلسيين كثيرة المنازه والبساتين، ومن متنزهاتها: الرشاقة وجبل أيل وتحته البساتين وبسط تسرح فيها العيون.

التاسعة: بلنسية شرقي مرسية وغربي طرطوشة حفت بها الأنهار والجنان فلا ترى إلا مياها تتفرع ولا يسمع إلا أطيار تسجع وهي على جانب بحيرة حسنة ومن متنزهاتها الرصافة، ومدينة ابن عامر ومن مضافاتها مدينة شاطبة وإليها ينسب الشاطبي صاحب القصيدة المعروفة بالشاطبية في القراءات السبع.

العاشرة: سرقسطة وهي قاعدة الثغر الأعلى، وهي مدينة قديمة بيضاء في أرض طيبة أحدقت بها من بساتينها زمردة خضراء والتف عليها أربعة أنهار فأضحت بها مرصعة مجزعة ولها متنزهات منها قصر السرور ومجلس الذهب، ويقول فيها ابن هود:

قصر السرور ومجلس الذهب   بكما بلغت نهاية الطرب

الحادية عشرة: طرطوشة وهي من كراسي ملك شرق الأندلس وإليها ينسب الطرطوشي صاحب "سراج الملوك"

الثانية عشرة: برشنونة ويقال برشلونة بإبدال النون الأولى لاما

الثالثة عشرة: بنبلونة وهي مدينة في شمال الأندلس

ملوك الأندلس قبل الإسلام

يبدأ تاريخ الأندلس باستيلاء القرطاجيين عليها، وكان البادئ بهذا الفتح هاملكار (٢٣٨ – ٢٢٩ق.م) ثم تبعه هازدروبال (٢٢٨ – ٢٢١ ق.م) ففتحا معظم الجنوب الشرقي وصار لقرطاجة شرقي الأندلس حتى نهر إبرو، وأسس هازدروبال مدينة قرطاجة الجديدة، ولقد فزع الرومان لتقدم القرطاجيين فتعاقدت الأمتان على ألَّا يعبر القرطاجيون نهر إبرو، ولما آل ملك قرطاجة إلى هانيبال استولى على مدينة ساجنتم ٢١٩ ق.م وكانت للرومان؛ فقامت الحرب البونية الثانية بسبب ذلك الاعتداء، وانتهت الحرب بانتصار رومة في معركة زاما الذين واصلوا الحرب لإخضاع بقية البلاد وتم لهم ذلك بعد قرنين، وممن كان لهم شأن في هذا الفتح كيتو الأكبر، واستولى على وسط البلاد ١٩٥ ق.م. وتايبرياس جراكاوس وسيبيو الإفريقي الصغير ١٣٣ ق.م. وأخضع القبائل التي كانت تعيش جنوب التاجة، وعام ٦٠ ق.م دخلها يوليوس قيصر وأخضع الأقاليم الواقعة شمال التاجة، وأتم أغسطوس إخضاع كانتابريا وأستورقة..

ولقد قسم الرومان الأندلس إلى ولايتين يفصلهما نهر إبرو، وقالوا عنها: هسبانيا الخارجة، وهسبانيا الداخلة، وهذا التقسيم هو الذي أدى بالرومان إلى تسمية البلاد "هسبانيا"، وأرادوا بذلك المملكة ذات الولايتين أو المقسمة إلى نصفين، وحكم كل ولاية نائب قنصل، ولما كان حكم أغسطوس قسم إسبانيا إلى ثلاث ولايات أكبرها طراقونة في شمال شرقي إسبانيا، وتليها غربا باتيكا وكانت عاصمتها كردوبا (قرطبة)، ثم لوزيتانيا وتقرب في مساحتها من مساحة البرتغال في هذه الأيام..

وظلت إسبانيا تابعة للدولة الرومانية الغربية حتى عهد الإمبراطور قسطنطين (٤٠٩م) وفي تلك السنة دخلها القوط الغربيون (الواندال) وانتزعوها من أيدي الرومان دون أن يلقوا مقاومة تذكر وعام ٤٢٩ م عبر بعضهم المضيق ودخلوا إفريقيا، وظلت إسبانيا تابعة للقوط حتى جاء العرب وغلبوا القوط على أمرهم في بداية القرن الثامن من الميلاد (٧١٠م – ٩١هـ).

العرب في شبه جزيرتهم

قبل الميلاد بثلاثمائة سنة داهمت جيوش الإسكندر الأكبر، الممالك الأسيوية الواقعة غربي آسيا، وأخضعت شعوبها ولكن لم يتح لهذا الملك العظيم أن يفتح شبه جزيرة العرب فظل العرب يتمتعون بحريتهم في صحراواتهم ولبث ذلك حالهم ألف سنة أخرى وهم في عزلتهم يرتعون، لهم عاداتهم وأخبارهم خاصة بهم داخل بلادهم.

قامت إلى جانب بلادهم ممالك عدة. شيد ورثة الإسكندر الدولة الشامية، وقام البطالسة بمصر وفي ذلك الوقت توج أوغسطوس إمبراطورًا في رومة وصار قسطنطين أول أباطرة بيزنطة المسيحية ثم كان ما كان من برابرة أوربا واستيلائهم على أملاك الرومان. ولقد حدث ذلك كله ولم يعرف العالم كثيرًا عن شبه جزيرة العرب، وما كان يحلم أحد بما سيكون لها من شأن في العالم.. كما أنه لم تتقدم أمة من الأمم لفتح بلاد العرب وإن كان البدو الذين كانوا يسكنون البلاد المجاورة لملك كسرى أو قيصر قدموا لأحدهما أو كليهما واجب الطاعة إلا أنها كانت طاعة وقتية تتغير تبعا لقوة أو ضعف سيطرة الأمتين على تلك الاقاليم.

وقد يكون سبب احتفاظهم باستقلالهم جدب بلادهم، ولكن لا بد أن يضاف إلى ذلك ما جُبلوا عليه من شجاعة ونشأوا فيه من حرية لم يعرفها شعب آخر، وظل أمرهم مجهولا حتى بداية القرن السابع من الميلاد، وإذ ذاك حدث انقلاب عظيم في تاريخ العرب إذ خرجوا من عزلتهم في محاربة من جاورهم وعملوا على الفتح وهذا الانقلاب العظيم قام به شخص واحد ونريد به النبي مُحَمَّد ﷺ.

ظهر الإسلام واطمأنت القلوب وعمل القوم على تنفيذ تعاليمه بنفس خالصة راضية وجد القوم بأمر الجهاد وإعزاز شأن الإسلام ونشره في مشارق الأرض ومغاربها، ولقد استطاع النبي ﷺ أن يجمع كلمة العرب في شبه جزيرتهم وأن يخلصهم مما كانوا فيه من جهالة وسوء حال فأصبحوا بفضل الله إخوانا وكانت دهشة الأمم المجاورة لهم عظيمة جدا وقد رأوا العرب يخرجون ويفتحون، وفي عهد خلفائه (رضي الله عنهم) أخضع العرب فارس والشام ومصر وشمال إفريقيا ثم امتد ملكهم الى ما وراء نهر جيحون شرقا وإلى المحيط الأطلسي غربا، وشُيِّدت الجوامع وارتفعت أصوات المؤذنين "الله اكبر.. الله أكبر" يدعون القوم إلى الصلاة..

ولقد استمات الروم في مقاتلة المسلمين فلم تستطع العرب أخذ عاصمة الروم حتى كان العثمانيون، واستولى عليها مُحَمَّد الفاتح في منتصف القرن الخامس عشر، وكذلك لاقى العرب مقاومة شديدة في بلاد المغرب الأقصى وكانت لقوط إسبانيا غير أن تقصير ملوكها في مساعدة ولاة المغرب الأقصى على أعدائهم من العرب كان سببا من أسباب انتصارات العرب، وفُتح ذلك الإقليم أولا ثم الأندلس نفسها ثانية.

حالة الأندلس قبل الفتح الإسلامي

كان القوط يحكمون الأندلس، وهم قبائل من البرابرة الذين استولوا على أملاك الدولة الرومانية الغربية، وقد أخذت في الضعف والتدهور ماديا وخلقيا وحربيا فاستولى القوط الغربيون على الأندلس في القرن الخامس الميلادي، وعند فتحهم لها وجدوها على ما آلت إليه الأملاك الرومانية عامة من ترف ورخاء وضعف في القوة، ويرجع ذلك إلى ما انصرف إليه الرومان من لهو بعد أن جدوا وفتحوا وحكموا ولم يلبثوا أن انغمسوا في ملذات ما وصلت إليه أيديهم.

وكان الشعب الروماني أو الإسباني ينقسم إذ ذاك إلى طبقة الأغنياء، وقد طاب لهم الترف وما يتبعه من ملذات، ثم طبقة العمال أو رقيق الأرض وبين الطبقتين الطبقة الوسطى ولم يكن أفرادها أحسن حالا من العمال، وكان عليهم مساعدة الحكومة ودفع الضرائب، وهذه الحالة هي التي جعلتهم يقصرون في مقاومة القوط عند غزوهم البلاد، فقد فقد الرؤساء شجاعتهم الأولى ولم تعن الطبقة الوسطى بالأمر بسبب سوء حالها وما هو لاحقها من ظلم.

أما الطبقة الثالثة فقد تبينت أنها لا يمكن أن تكون أسوأ حالا مما هي عليه فلم تهتم بتغيير الحكام.

جاء القوط فلقوا من المقاومة الأمر الخفيف، ولم تلبث أن فتحت المدن أبوابها وسلم الرومان وعندئذ أحرق الفاتحون المدن وسبوا النساء والأطفال وذبحوا من بادر إلى ميدان القتال وحدث أن أصاب البلاد إذ

ذاك قحط وانتشر الوباء ومات الناس جوعا وعمت الفوضى فاستسلم القوم للقوط صاغرين.

حكم القوط الأندلس ثلاثة قرون: الخامس والسادس والسابع، وفي بداية الثامن وصل العرب إلى المحيط الأتلانتي، وتطلعوا إلى بلاد الأندلس، وكان القوط في بداية عهدهم بالأندلس قد أعادوا إلى القوم شجاعتهم الرومانية وأصلحوا حال البلاد، ولما كان القوط أنفسهم قد اعتنقوا المسيحية ظن المبشرون الكاثوليك أن الفرصة سانحة لنشر المسيحية في الأندلس ولكن خاف سعيهم إذ وجدوا أن القوط اعتنقوا المسيحية في الأندلس ولكن خاب سعيهم إذ وجدوا أن القوط اعتنقوا المسيحية لغرض واحد وهو المغفرة بعد التوبة فيرتكبون ما تابوا من أجله ثم يتوبون ثانية ويرتكبون وهكذا.. ولما كان هذا موقف الحكام إزاء المسيحية لم يهتموا بها وأغفلوا أمر القائمين بنشرها وما لبثوا أن أهملوا الانصراف الى أمر الرعية وتحسين حالهم، وكأنما هم وقد عادوا بالبلاد إلى ما كانت عليه أيام الرومان ثم زادوا من مصائبهم؛ جعلوا طبقة العامة على ما كانت عليه أرقاء للأرض وما كان أحدهم يستطيع الزواج إلا بأمر من سيده، أما الطبقة الوسطى فأصبحوا في فقر شديد، وقد جردهم القوط من أموالهم وقليل عقارهم وصغير ممتلكاتهم تسديدًا لضرائب فرضت عليهم، ونعم كبار الملاك من القوط بما امتلكوه من أرض واسعة سخروا في زرعها الأرقاء، وسار رجال الكنيسة وقد أثروا على طريقة الحكام فلم يعنوا شيئًا بما جاءوا لأجله وساموا الأهلين سوء العذاب ناسين أنهم رجال الدين، وبذلك كان القوط يسيرون في نفس الطريق الذي أدى بالرومان الى السقوط .

بلغت تلك المساوئ غايتها في عهد غيطشة (ويتيزا) الذي علم الشعب ارتكاب الذنوب والآثام ومهد الطريق للفتح الإسلامي، وإذا كان الإسبان لم يهتموا بفتح القوط فما نظنهم وهذه حالتهم أن يهتموا لدخول العرب بلادهم، ومما سهَّل على العرب فتح الأندلس ما كان من فتنة داخلية أحدثها لذريق آخر ملوكهم: اغتصب رودريك الملك من غيطسة وسار أول أمره سيرة حسنة ثم انغمس في أبهة الملك وترفه، وكانت عادة أشراف تلك البلاد أن يرسلوا أبناءهم وبناتهم إلى القصر الملكي بطليطلة لينشأوا منشأ حسنًا، وكان ممن أرسلوا الى القصر لذلك الغرض ابنة للكونت يوليان حاكم كيوتا، وكانت تدعى فلورندا، ولما شبت صارت وصيفة للملكة فرآها لذريق وفتنه جمالها فسلبها شرفها، وكانت أمها ابنة الملك المخلوع ماتت قهرًا؛ فأخبرت الفتاة أباها بما كان من اعتداء عليها فأعد أبوها نفسه للانتقام، ولما لم يعلم لذريق منه ذلك مده بخير جنده وفتح له خزائن سلاحه ليجد في مقاتلة العرب بإفريقيا وطلب إليه عند انصرافه أن يهديه صقورًا فأجابه الكونت سآتيك بصقور لم ترها من قبل.

إفريقيا أو بلاد المغرب وأحوالها

فتح عمرو بن العاص مصر في خلافة عمر، ثم وليها في خلافة معاوية، ولقد وجد العرب جماعات البربر يسكنون أقاليم إفريقيا الشمالية فيما بين مصر والمحيط الأتلانتي، وفي وصفهم يقول أستيرابوا أنهم يشبهون العرب في معيشتهم وشجاعتهم وتمتعهم بالحرية القديمة، ولم يكن للرومان في تلك البلاد من نفوذ إلا على السواحل، ولما حاول العرب إخضاعهم لاقوا منهم أعداءً أشداء اختلف أمر القتال بينهم على نصر تتبعه هزيمة

وخلاصة ما كان بين الطرفين:

سَيَّر عمرو، عبد الله بن سعد بن أبي السرح إلى إفريقيا؛ فسار بين سعد واستولى على كثير من المدن التي كانت تابعة للرومان وصالحهم على أن يدفعوا له ألف ألف وخمسمائة ألف دينار.

وفي عام خمسين من الهجرة ولى معاوية عقبة بن نافع، وكان مقيما ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، فقصد عقبة موضع القيروان وبناها وتم أمرها عام ٥٥ هـ ودخل كثير من البربر في الإسلام، وفي خلافة يزيد بن معاوية دخل عقبة بن نافع باغاية ثم قصد بلاد الزاب ثم رحل إلى تاهرا، ثم نزل على طنجة ثم السوس الأدنى والأقصى ووصل بحر الظلمات ثم عاد ولم يلبث أن خرج عليه زعيم للبربر يسمى كسيلة واتفق مع الروم وقاتلوا العرب وهزموهم وأخرجوهم من القيروان وقتل عقبة وخرج من كان بالقيروان إلى برقة.

وأبت على العرب أنفسهم أن يقبلوا هذه الهزيمة، فواصلوا القتال عشرين عاما أظهر فيها الطرفان ضروب الشجاعة والصبر وبعدها تغلب العرب على البربر وقبل الآخرون صلحا يجعلهم والعرب سواءً في كل الحقوق ويوقفون رحى الحرب ولا يعودون إليها على ألا يثير العرب غضبهم ويعفون مما يفرض على الأمم المغلوبة على أمرها، وكان ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك وعامله على إفريقيا موسى بن نصير، ولما كانت ولاية يزيد بن أبي مسلم على إفريقيا خرج على أمر الصلح وحط من قدر البربر وأراد أن يسومهم العذاب فقتلوه، وكان ذلك في خلافة يزيد الثاني

(٩٩ – ١٠٥هـ) فتريث يزيد في أمره وفضل مصالحتهم فوعدهم العفو إن ركنوا إلى الطاعة وولى عليهم رجلا يرضونه من كلب فهدأت الحالة حتى إذا كانت خلافة هشام نقض رأي سلفه وأرسل إلى إفريقيا عبيد الله وأمره بالجد في جمع الأموال (٧٣٤م).

كان عبيد الله عاقلا أديبا وشجاعا كريما غير أنه يحقر من أمر غير العرب قبطا كانوا أو بربرا أو إسبان فأرهق الناس وظلمهم وأرسل أزواجهم وبناتهم الى الشام لجمالهن، صبر البربر خمس سنوات وأضمروا الحقد الشديد للعرب ووطدوا النفس على رفع هذا الجور وأخذ رجال الدين يبثون روح الثورة والدعوة لها سرا وكان وجود جيش عربي قوي يحول بينهم وبين ما يشتهون فانتظروا فرصة يجود بها الزمن حتى إذا كان عام (٧٤٠م) حدث أن أرسل عبيد الله حملة الى صقلية يقودها حبيب الفهري فضعف أمر الجيش، ولما أراد أحد العمال على ناحية من البلاد جمع خراج مضاعف شمر القوم عن سواعدهم واعتقلوا الرماح وحلقوا الرءوس ورفعوا المصاحف على أسنة الرماح وجعلوا الأمر لأحدهم يدعى ميسرة فهاجم طنجة ودخلها عنوة وقتل حاكمها ومن بها من عرب حتى أطفالهم، ثم سار إلى سوس وكان عليها إسماعيل بن عبيد الله وما كاد يصلها حتى ثار أهلها على حاكمها وقتلوه وما لبث أن خرج المغرب بأكمله على العرب واختار القوم قائدهم ميسرة خليفة ودل عملهم هذا على ما في نفوسهم من حب الديمقراطية بصحيح معناها.. عندئذ طلب عبيد الله الى عقبة بن الحجاج أن يرسل إليه قوة من جنده فلبى الطلب وجاء الجند من الأندلس فلاقوا هزيمة كبيرة عند وصولهم فخرج عقبه بنفسه في جيش عظيم وأسرف في

الذبح والتقتيل دون أن تأخذه عليهم رحمة أو شفقة، ولكنه رغم ذلك لم يستطع إخضاعهم وكسر شوكتهم، وعلى عكس ما كان ينتظر اشتدت الثورة فجمع عبيد الله جنده وأرسلهم تحت إمرة خالد الفهري فسار إلى طنجة وقاتل ميسرة وأجبره على الالتجاء إلى داخل المدينة حيث قتله جنده وقد أراد يستبد بالامر دونهم وهذا لا يتفق مع آرائهم الدينية في الخلافة الصحيحة واختاروا غيره وجددوا القتال وقتل خالد وخيرة ونال البربر نصرا عظيما.

إذ ذاك عاد حبيب الفهري من صقلية ولما تبين قوة أعدائه عظم أمرهم عليه فلم يجرؤ على ملاقاتهم، وحدث في ذلك الظرف أن ثار العرب أنفسهم على عبيد الله وقتلوه بدعوى أنه السبب فيما نزل بهم بلغ ذلك هشام بدمشق فأقسم ليطهرن منهم الأرض وأوعدهم جيشا طلائعه في بلاد المغرب ومؤخرته في دمشق فأعده ثلاثين ألفا وأمر عليهم كلثوم القشيري وآخرين فخرج جيش الشام في ٧٤١ ميلادية وعند وصوله قامت العصبية بين جند الشام وجند العرب فقفلت المدن أبوابها في وجه من أتوا لنصرتهم وأرسل حبيب الفهري إلى كلثوم يهدده بمقاتلته إذا هو تدخل في أمر العرب، ولظرف خاص أصلح فيما بينهما فصارت جيوش الشام إلى بقدودة حيث تجمع البربر وتقابل الطرفان ودار القتال وانتهت المعركة بانتصار البربر وقتل من جند الشام ثلث عددهم وأسر ثلث آخر وسار من بقي بقيادة بلج إلى طنجة ومنها إلى كيوتا فدخلوها واعتصموا بها محاصرين وطلبوا النجدة ممن بالأندلس ليدفعوا عنهم هلاكا محققا.

الباب الثاني

العرب في بلاد الأندلس

يقسم الكلام في هذا الموضوع ترتيبًا للحوادث التاريخية المهمة إلى ما يأتي:

فتح الأندلس - ولاة بني أمية بالأندلس - موقفها إزاء بني العباس - دخول عبد الرحمن الأموي الأندلس.

فتح الأندلس:

مر بنا ما كان من أمر لذريق ويوليان ونعود إلى سرد ما كان؛ فنقول عاد يوليان إلى كيوتا وتقدم إلى موسى بن نصير والي إفريقيا من قبل الوليد بن عبد الملك ٨٩هـ – ٧٠٨م يسأله وقف القتال ووضع صلح واتفقا على العمل معا لمقاتلة لذريق، وقد أراد بذلك انتقاما لما أصابه وكان يرجو أن يقتل لذريق ويكتفي العرب بما تصل إليه أيديهم من أسلاب وغنائم ثم يعودون إلى المغرب ويعود تاج الأندلس إلى أولاد غيطسة والد زوجه.

أطنب يوليان في وصف الأندلس من حيث مزارعها وجمال مدنها ووفرة خيراتها وضعف ملوكها وأخذ يسهل عليه أمر فتحها وبين له استعداده لتجهيزه بالسفن اللازمة لنقل الجند إلى البلاد وتعريفه بطرق الأرض ومسالكها: فكر ابن نصير مليا خشية أن يكون في الأمر تدبير خفي وراء تلك الوعود فكاتب الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان يسأله رأيه واكتفى لوقته بإرسال قوة من خمسمائة رجل بقيادة طريف إلى

ساحل الأندلس الجنوبي؛ فعبر طريف البحر على أربع من سفن يوليان وكان ذلك في عام ٩١هـ الموافق ٧١٠ ميلادية وكان طريف موفقا في مهمته فقد تمكن من دخول مدينة الجزيرة الخضراء واستولى على أموالها وتأكد من إخلاص يوليان وصحة أقواله. ورغم ذلك ظل ابن نصير متخوفًا ثم وصله جواب الخليفة يحذره المجازفة وتعريض أرواح المسلمين للخطر والتهلكة في بلاد لا يعرفونها وترك له أمر غزوات بسيطة، غير أن حب الفتح وتوسيع رقعة المملكة الإسلامية ونشر الدين الإسلامي جعله يقوم بأمر الفتح جديًا. وبهذه المناسبة ندفع عن العرب في موقفهم هذا وفي كل موقف من مواقف فتوحاتهم ما ينسبه إليهم مؤرخو الأفرنج من أن حب المال كان أقوى عامل يشجعهم على القتال.

الفتح:

في عام ٧١١م علم موسى بن نصير أن أمورًا داخلية تشغل ملك القوط رودريك في شمال بلاده حيث قامت ثورة في مقاطعة باسك ولقد دونت الأساطير الإسبانية القديمة القصة الآتية بمناسبة ما نزل برودريق من هزيمة:

كان من أمر فتح الأندلس أن طليطلة كانت دار الملك بالأندلس يومئذ، وكان لها بيت مغلق متحامي الفتح يلزمه من ثقات القوط قوم قد وكلوا به كي لا يفتح يعهد الأول بذلك للآخر. كلما ملك منهم ملك زاد على ذلك البيت قفلا، فلما ولي لذريق الأخير عزم على فتح الباب والاطلاع على ما في البيت. فأعظم ذلك أكابرهم وتضرعوا إليه في الكف فأبى وظن أنه بيت مال ففض الأقفال عنه ودخله فأصابه فارغًا لا شيء

فيه إلا تابوتًا عليه قفل فأمر بفتحه فألفاه أيضًا فارغًا ليس فيه إلا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمائم وهم متقلدو السيوف متنكبو القسى رافعو الرايات على الرماح وفي أعلاه كتابة عجمية فقُرِأت فإذا هي "إذا كسرت هذه الأقفال عن هذا البيت وفتح التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فإن الأمة المصورة فيه تغلب على الأندلس وتملكها".

صحت النبوءة إن كان هناك نبوءة بهذا الشكل: أرسل موسى بن نصير إلى الأندلس طارق بن زياد في قوة عددها سبعة آلاف من أهل المغرب ونجح طارق في مهمته أكثر مما كان يظن.. نزل طارق بجنده على صخرة السبع التي سُميت بجبل طارق ومن ثم استولى على مدينة كارتيه وتقدم في داخلية البلاد وإذا بجيش عظيم للقوط يقوده ملكهم مقبل لملاقاة طارق ومن معه وتلاقى الجيشان على ضفتي نهر صغير سماه العرب نهر بقه، وهذا النهر يصب في المضيق على مقربة من رأس الطرف الأغر واسم النهر بالأفرنجية جواديليت. وكان موسى قد أمد طارقًا بخمسة آلاف وكان القوط في ستة أمثال العرب ولكن العرب كانوا كعادتهم أولي بأس وإقدام وشجاعة وإخلاص "قوم أغنتهم نفوسهم عن المدد وقلوبهم عن العدد"، وكان جيش القوط من رقيق الأرض يعوزهم التدريب والنظام ملأ الخوف صدورهم وكان الكثير من أشرافهم ممالئين للعرب ظنًا منهم أن في ذلك وسيلة تعيد الملك إلى أولاد غطسة ملكهم المخلوع.

المعركة:

رأى العرب جيش القوط في عدده العظيم ورأوا رودريك تغطيه عدة الجلاد فوجموا فخطبهم طارق خطبته المشهورة فزال ما دخل نفوسهم وقالوا قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه فأحضر إليه فإننا معك وبين يديك وانقضوا على أعدائهم وبدأ القتال واستمر سبعة أيام صبر فيها العرب صبر الكرام ثم خرج آل غيسطة على ملكهم فوقع الخلل في صفوف القوط وعبثًا حاول رودريك جمع شتاتهم فظهر النصر بين جند الإسلام وتمت هزيمة القوط وفي اليوم التالي وجد القوم حذاءه (ساندال) وجواده على ضفة النهر مما يدل على انتحاره غرقًا وحملته المياه إلى مصب النهر في المحيط، ويعتقد الإسبان أنه سيعود يوم يبرأ من جروحه ويقود العالم المسيحي لمقاتلة المسلمين ويقول بعض المؤرخين أن الذي قتله طارق ضربه بالسيف على رأسه.

كتب موسى بن نصير إلى الخليفة يبشره بالفتح والنصر والواقع أنه لم يبق العرب من المقاومة إلا الأمر الخفيف فسهل عليهم امتلاك البلاد بعد إخضاع ثورات متفرقة قامت بها بعض البلدان وما كان طارق ليضيع وقته سدى فمد فتوحاته وتوالت انتصاراته ولم يعبأ بأمر مولاه ابن نصير إلا يتقدم أكثر مما وصل إليه ولم يكن من باعث لهذا الأمر سوى ما دخل قلب موسى من حسد وغيرة على ما ناله طارق من نصر لم يحظ هو به ويدون له.

فتوحات طارق:

أرسل طارق إلى قرطبة رجلا من رجاله يدعى مغيث على رأس سبعمائة فارس؛ فانتظر مغيث حتى أسدل الليل ستاره واتخذ من ظلمة

الليل حجابًا وقصد المدينة فصولها قبل أن يعلم أهلها بقدومه وعند وصوله بدأت السماء تمطر ثلجًا أخفى صوته وقع حوافز الخيل فعدَّ المسلمون ذلك مساعدة إلهية وأخذوا يدورون حول أسوار المدينة حتى وجدوا ثلمة وتهيأوا للدخول منها وتسلق أحدهم شجرة تين مكنته من الوصول إلى الفتحة ثم أدلى قماش عمامته وأخذ يرفع الجند الواحد بعد الآخر، وبذلك اجتمع نفر رموا بأنفسهم إلى داخل المدينة وباغتوا الحراس وفتحوا الأبواب فدخل الجيش وامتلك المدينة بدون قتال ما، ولما تنبه الحاكم إلى ما كان لجأ إلى دير واختفى به مع بعض رجاله وظل مختفيًا ثلاثة أشهر ثم سلم وجعل العرب الأمر فيها لليهود لما كان من إخلاصهم.

ومن تلك الحادثة كان اليهود يسيرون في إثر الفاتحين، ويشهد مؤرخو الإفرنج بحسن معاملة العرب لجميع الأجناس والأديان مما يميز حكمهم على حكمهم على حكم أمم القرون الوسطى ومما جعل الأهلين عامة يشتركون في إقامة حضارة الأندلس من علوم وفنون وفلسفة.

استولى طارق بعد ذلك على أرقيدونا وكان أهلها قد خرجوا منها واعتصموا بالجبال ثم سقطت مالقة في أيدي العرب، ثم هاجم البيرة وكان تيوديمير القوطي يدافع عن ممرات مرسية وكان ناجحًا في دفاعه حتى اضطر أن يشتبك مع العرب في معركة فاصلة نصر الله فيها الإسلام ومات من المسيحيين خلق كثير وفر تيوديمير وبعض رجاله إلى مرسية ولما وجد أن رجالها قد ماتوا في ميدان القتال جعل النساء يتلثمن وأعطاهن عصيًا طويلة وأقامهن على الأسوار وذهب إلى طارق وأعلمه باستعداده لملاقاته والدفاع عن المدينة ورأى طارق ومن كثرة عدد المدافعين ثم قال لطارق لو أنه فضل

السلم لسلمه المدينة على شريطة أن يسمح لرجالها بأخذ متاعهم والخروج منها سالمين؛ فوافقه طارق وما لبث أن خرج منها النساء يتعثرن في أذيالهن فأراد العرب سبيهن فذكرهم زعيمهم بما كان من وعده فكف العرب عنهم. وسر طارق لهذه الحيلة وجعله من قبله حاكمًا على مرسية وسار الخبر بما كان فلقبهم المسيحيون بفرسان غرناطة الأفاضل.

ومن مرسية خرج طارق إلى طليطلة عاصمة البلاد حيث أشراف القوط، وكانت غايته تنحصر في إبادتهم؛ فلما سلم اليهود المدينة لم يعثر فيها على شريف وكانوا قد لجأوا إلى جبال استورقه، وأقام بالمدينة بعض الخونة أمثال يوليان فعينهم العرب في وظائف حكومية، وهنا أصبحت البلاد مفتحة الطرقات أمام العرب وصارت من أملاك الخلافة العربية. نترك طارقًا الآن في طليطلة ونعود إلى ما كان من أمر موسى بن نصير.

في صيف عام ٧١٢م دخل الأندلس موسى بجيشه العربي في ١٨ألف مقاتل لعل التاريخ يدون له شهرة تجعل فضل الفتح له، وكان نصيبه من الفتح أن يجعل البلاد تخلد إلى السكينة ونشر الأمن على ربوعها، وقصد طليطلة وفي طريقه إليها دخل قرمونة وشدونه (سيدونيا) ومارده وأخيرًا قابل طارقًا وكان قد خرج للقائه إجلالًا له، ولكن موسى بدل أن يشكره بادره بالسوط على وجهه وأنبه على ما كان منه وعصيان أمره وكانت مقابلتهما في مدينة تلافيرا ثم افترقا فسار ابن نصير شمالا وعبر جبال الشاره، ودخل سلامنكا ثم وصل إلى استورقه وأخضع إقليم جليقية ثم عاد شرقًا إلى قشتالة، ودخل مدينة سرقسطة حيث وجد طارقًا وكان قد سار شمالا إلى مدريد ثم إلى تلك المدينة ثم افترقا ثانية فسار

موسى شمالا مخترقا أرغونة ونافارا ووصل إلى جبال ألبرت وتسلقها وشاهد أرض الفرنجة ومياه المحيط، وأثناء ذلك كان طارق قد سار من سرقسطة إلى طرطوشة وعبر نهر أبرو ثم قصد طراقونة ثم فتح برشلونة وجيرونا، وأخيرًا عاد أدراجه وقصد بلنسية، وهنا عاد إليه موسى بن نصير، وكان الوليد بن عبد الملك أرسل إليه رسولين الواحد بعد الآخر يأمرانه بسرعة العودة إلى دمشق. وفي طريقه جنوبا قابل طارق كما مر بنا فصحبه وسارا معا جنوبًا إلى قادش وعبرا البحر إلى بلاد المغرب وسارا إلى مصر ومنها إلى الشام ودمشق بعد أن استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز، وكان خروجه سنة ست وتسعين (٩٦هـ) وفي بعض الروايات أن طارقًا سبق ابن نصير إلى دمشق.

واختلف المؤرخون في وقت وصولها إلى دمشق فيقول بعضهم كان وصولها آخر أيام الوليد بن عبد الملك، ويقول آخرون عقب وفاته، وعلى أية حال فقد ادعى كل منهما لنفسه فتح الأندلس فطلب الخليفة البرهان فقدم له موسى الأسلاب وفيما بينها مائدة سليمان وكانت هذه المائدة بطليطلة وطارق أول من استولى عليها ومنه أخذها موسى وهنا طلب طارق إلى الخليفة أن يسأله عن رجل من ذهب للمائدة مفقودة فلم يجب موسى عنها بشيء فأخرجها طارق وبرهن على أنه الفاتح للأندلس. ومما يؤسف له نهاية هذين القائدين العظيمين فقد أمر الخليفة بعزل طارق في حالة فقر شديد وقد فرض عليه سليمان غرامة ذهبت بما يملك هو وأفراد أسرته.

أما عبد العزيز بن موسى بن نصير فقد دس عليه سليمان بن عبد الملك من قتله لاتهامه بموالاة أخيه الوليد كما يقال أيضًا أن قومه هم

الذين قتلوه وذلك لزواجه من أرملة مسيحية راقه جمالها وطلب إلى الناس أن يحنوا الرءوس لها إجلالًا واحترامًا فأبت عليهم ذلك عزة نفوسهم فغدروا به.

العرب وأهل البلاد:

لبثت الأندلس في حكم العرب ثلاثمائة سنة (نهاية حكم بني أمية) ولم تكن تلك المدة عصر سكون في كثير من أوقاتها إذ علاوة عما كان بين العرب أنفسهم من شقاق فكثيرًا ما سبب القوط في الأقاليم الشمالية اضطرابات ولقد كان من شر ما ارتكبه العرب من أخطاء أن تركوا بقايا القوط وشأنهم على شيء من الاستقلال واكتفوا بما امتلكوه وأقاموا مملكة مقرها قرطبة فخار العصور الوسطى والشمس المشرقة الوحيدة في ظلام أوربا الحالك في تلك العصور.

حكم العرب:

كانوا عادلين، اتبعوا العقل الراجح والحكمة العالية في إدارة شئون البلاد وجعلوا لهم من الإغريق والإسبان مستشارين، ولقد وجد الإسبان أنفسهم أحسن حالا مما كانوا عليه في عهد حكامهم المسيحين ووفر لهم العرب أسباب عيشة هادئة آمنة ولم يتدخلوا في ديانتهم وتركوا لهم التقاضي أمام قضائهم والانصياع لقوانينهم وجعلوا منهم عددًا ممن يجبون الضرائب وخفضوا الجزية على أفراد الطبقة الوسطى ورفعوا ما كان عليهم من واجبات وكان على من امتلك منهم أرضًا خراجها، وفرضت الجزية على من يستطيع دفعها وكانت فيما بين ١٢، ٤٨ درهمًا سنويًا تدفع على

أقساط شهرية فسهل دفعها، وطبعا اقتصرت على المسيحيين واليهود..

أما الخراج فتساوى في دفعه العرب والمسيحيون واليهود وقدر الخراج حسب صلاحية الأرض للزراعة، ولم ينزع العرب ما كان للقوم من ملكيات واكتفوا بمصادرة أملاك الكنيسة وأملاك من فر من أشراف القوط، ومما يذكر للعرب أنهم حرروا رقيق الأرض وقضوا على نظم العبودية في العصر الإقطاعي واقتصر واجب الزارع على أن يقدم للمالك ثلث المحصول أو فيما بين ذلك إلى أربعة أخماسه، ولقد نالت بعض المدن حرية تامة في إدارة شئونها مالية وزراعية مقابل دفع جزية معينة ونالت ذلك مارده وغيرها، هذا وإن فرضت ضرائب وقتية فكان على العرب كغيرهم دفعها بدون تفرقة.

ولقد سمح العرب للإسبان أن يعتنقوا ما شاءوا من ديانات ولم يكرهوهم أبدا على اعتناق الإسلام ما داموا يدفعون الجزية وبفضل ما لقيه المسيحيون من عدالة دخل الكثير منهم في الإسلام طوعا، ومما يدل على رضاهم أن قس باجه عقد لعبد العزيز بن موسى بن نصير على أرملة لذريق (كناها العرب بأم عاصم) ومن ذلك نرى أن فتح العرب للأندلس كان نعمة على ساكنيها خاصة، ونورًا وهدى لأوروبا عامة.

الباب الثالث

ولاة الأندلس في العصر الأموي

نبدأ بذكر ولاتها وتعيين مدة ولاية كل منهم وليها بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير

	شهر	سنة
أيوب بن حبيب اللخمي	٣	٢
ثم وليها السميح بن مالك الخولاني	٩	٢
" " عنبسة بن سحيم الكلبي	٥	٤
" " يحيى بن مسلمة	٦	٢
" " حذيفة بن الأحوص القيسي	—	١
" " عثمان بن أبي نسعة الخثعمي	٥	—
" " الهيثم بن عبيد	٥	—
" " عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	٨	٢
" " عبد الملك بن قطن الفهري	—	٤
" " عقبة بن الحجاج	٢	٥
" " مفلح بن بشير القيسي	١١	—
" " حسام بن ضرار الكلبي	—	٢
" " ثعلبة بن سلامة الجذامي	—	١
" " يوسف بن عبد الرحمن الفهري	٩	٩
" " ثم كانت دولة بني أمية بالأندلس ومدة حكم الولاة	٣	٣٩

وقد اختلف الرواة في ترتيب هؤلاء الولاة ومدة حكمهم كما تقلد منصب الولاية بعضهم أكثر من مرة كعبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قطن الفهري.

أهم حوادث تلك المدة

١- العرب والفرنجة:

عبر عبد الرحمن الغافقي جبال البرنات ودخل جنوب بلاد الغال وفتح إقليم سبتمانيا بما فيه مدينة ناربون وقرقشونة سنة (٧١٩م) ومن البلدين كان العرب يغيرون على إقليمي برغنديا وأكتانيا، وحدث في عام ٧١٢ أن هزمهم يوديس هزيمة منكرة عند أسوار تولوز ولكن هذه الهزيمة لم تثنهم عن غرضهم، بل أثارت من همتهم فدخلوا مدينة بون ونهبوا وفتحوا سان وفرضوا الجزية عليها واستولوا على أفنيون وأغاروا على ما جاورها (٧٣٠م)

واتخذ عبد الرحمن مدينة ناربون مقرًا لحكمه وصمم على فتح بلاد الغال وعبثًا حاول يوديس طرد العرب فقد لاقى هزائم متتالية، وسار عبد الرحمن إلى إقليم أكتانيا وهزم يوديس مرة أخرى على ضفاف الجارون واستولى على بوردو، وفي عام ٧٣٢م سار منتصرًا إلى تورو في طريقه إليها وقد اجتاز بواتييه قابله شارل مارتل ملك الفرنجة ففرح العرب بملاقاته وأملوا انتصارًا يجعل فرنسا من كاليه إلى مرسيليا تحت سيطرتهم فكانت المعركة في ٧٣٣م من المعارك التاريخية الحاسمة إذ على نتيجتها توقف أمور لها شأنها في معالم التاريخ؛ إذ كان الإسلام سينتشر في أوربا ويحل محل

المسيحية، إذا كان الفتح الإسلامي يسير شرقًا على ما كان يأمل ابن نصير في اجتيازه القارة الوبية إلى عاصمة الروم، ولكن أراد الله أن يكون ما كان من فتح أقصى حد للفتح الإسلامي وأن ينحسر المد وقد طغى غاية ما قدر له، ومما يروى في هذا الصدد أن العرب عند اجتيازهم جبال البرنات عثروا على حجر منقوش عليه نقوش غريبة توصلوا إلى حل رموزها وإذا هي يا بني اسماعيل ارجعوا من حيث أتيتم وإن سألتم عن سبب فذلك كي يذبح بعضهكم البعض.

المعركة: وجد العرب من الفرنجة أعداء شجعانا مدربين على القتال منظمين في صفوفهم ودار القتال ستة أيام ولم يجد فيه أحد الجمعين وفي اليوم السابع قويت العزائم واختلط الفريقان بعضهما ببعض وانجلت المعركة عن انتصار الفرنجة وهزيمة العرب وقتل عبد الرحمن أثناء القتال وبذلك زال ما كان من خطر فتح الإسلام لغرب أوربا، ولشدة ما أصاب العرب من هزيمة لم يفكروا ثانية في إعادة الكرة وفتح فرنسا وحافظت فرنسا على قوميتها وحريتها ودينها ولقد استطاع العرب أن يحتفظوا بالسفوح الشمالية للجبال حتى مدينة ناريون حتى عام ٧٩٧م ثم ارتدوا إلى بلاد الأندلس.

٢- ثورة البرابرة في الأندلس

- رأينا فيما تقدم أن طارقًا وعرب المغرب كان لهم الفضل الأكبر في فتح معظم الأندلس ثم دخلها موسى بن نصير وجيشه العربي وتعاون القائدان في فتح بقية البلاد وإخضاعها وإذ ذاك وقد تم الفتح كان للفريقين أن يقتسما البلاد، ولقد سولت للعرب أنفسهم أن يعتبروا

عرب المغرب في الطبقة الثانية فجادوا عليهم بالأقاليم الجبلية الشمالية حيث تصعب المعيشة وحيث القتال كان أبدا متصلا بينهم وبين المسيحيين في معاقلهم الجبلية كجبال ليون وجليقية واستورقه وأقاموا أنفسهم في أخصب البلاد وأجملها فكرههم البربر لذلك.

- ساء البربر أن يتدخل العرب فيما بين البربر والمسيحيين فإذا ما فرضوا أجزية عليهم وعملوا على جمعها منعهم العرب من ذلك وأنزلوا بهم شديد العقاب وزجوهم في أعماق السجون.
- ولما قامت ثورة البربر في بلاد المغرب وسمع بها إخوانهم في الأندلس اشتدت كراهيتهم وعظم حقدهم عليهم وكان طبيعيًا أن يتأثروا بها.
- كان لمجيء الخوارج إلى الأندلس أثر عظيم في البربر لأنهم كما رأينا شدة التمسك بآرائهم الدينية.

ولهذه الأسباب ثار البربر بقيادة زعيم لهم يدعى مؤنوسا أحد أصحاب طارق في الفتح وأمده يوديس أمير أكتانيا بقوة من عنده فبدأت ثورة سياسية دينية. اشتدت الثورة في مقاطعة جليقية وما لبث أن عمت الشمال عدا سرقسطة حيث الأغلبية من العرب وطرد البربر العرب وهزموا جيوش عبد الملك بن قطن مقاطعات مارده وكوره ريا وتلافيرا وجهات أخرى واختاروا من بينهم إماما ثم نظموا قواتهم وقسموها إلى ثلاثة أقسام أولها يسير إلى طليطلة وثانيها إلى قرطبة وثالثها إلى الجزيرة الخضراء ومنها يعبرون البحر إلى كيوتا (سبتة) فيقتلون ما بها من جند الشام ثم ينضمون إلى إخوانهم بالمغرب في مقاتلة العرب ويرسلون بجماعات من البربر إلى الأندلس.

في هذا الظرف لم يكن لعبد الملك بد من أن يستعين بجند الشام المحاصرين بسبتة، وكان رفض مرارًا أن يمدهم بأية مساعدة ولكن هي الظروف التي جعلته يفاوضهم في أمر مجيئهم إلى الأندلس لنصرته، وتم الاتفاق بينهما على شروط معينة فأرسل إليهم سفنا نقلتهم إلى الأندلس وكان فرح العرب بهم كثيرًا رغم ما بينهم من عداء قديم وسار جند الشام لوقتهم مع ثلة من فرسان العرب، وقابلوا البربر في طريقهم إلى الجزيرة الخضراء عند مدينة شدونة وجد الشاميون في القتال وانتصروا على البربر وغنموا اسلابا وافرة وكذلك انتصر العرب على جيش البربر أمام قرطبة. أما الجيش الثالث وكان أقام حول طليطلة ٢٧ يومًا يحاصرها فقد اشتبك أخيرًا مع العرب في معركة دامية على ضفاف الوادي الكبير حيث لاقى هزيمة منكرة. وانتهى الأمر بفشل الثورة وتشتت البربر ووجد جند الشام أنفسهم وقد أصبحوا في أحسن حالات الرخاء.

ولما زالت مخاوف عبد الملك بدأ يفكر في التخلص من حلفائه وأعدائه فطلب إلى زعيمهم بلج أن يغادر الأندلس حسب ما بينهما من اتفاق ولما عز على الشآميين الخروج وقد طاب لهم المقام بالأندلس نشأ النزاع بين الطرفين وأدرك بلج سوء نوايا عبد الملك فإذا كان يوم وقد خلت قرطبة من جندها قام الشآميون وهاجموا قصر عبد الملك وطردوه منه وأقاموا بلج حاكما على الأندلس (٢٠ سبتمبر ٧٤١) ثم طلبوا منه أن يأمر بقتل عبد الملك، وعبثا حاول زعيمهم أن يرجعهم عن عزمهم وأخيرا سمح لهم بما طلبوا فأخذوه من بيته وقادوه إلى قنطرة قرطبة وضربوه بالسياط وأغمدوا سيوفهم في جسده ثم صلبوه وأقاموا إلى جانبه كلبا وخنزيرًا.

غضب عرب الجزيرة لما أصاب وإليهم القرشي فنادوا بالحرب والقتال وأمروا عليهم ولدي عبد الملك: أمية، وقطن.. وانضم إليهم عرب المغرب انتقامًا لأنفسهم وجاء لنصرتهم أيضًا أمير ناربون وجيش آخر يقوده عبد الرحمن الخامس بن حبيب الفهري والي إفريقيا، وكان يأمل بعلو حسبه أن يصير إليه ملك الأندلس. وبذلك أصبح المتحالفون في جمع اختلف في تقدير عدده فيما بين أربعين ومائة ألف، ولم يزد عدد جيش بلج على اثنتي عشر ألفا وضم إليه عددًا من حراث الأرض المسيحيين وانتظر أعداءه بالقرب من قرية اختارها. ولما تقابل الفريقان كان النصر لجند الشام ودخلوا قرطبة ظافرين وما لبث أن مات يلج متأثرًا بجروحه فقام مكانه ثعلبة فأباح لجنده القتل والنهب فعظم أمره في أعين جنده ولكنه سرعان ما ارتكب غلطة حربية وذلك أنه هاجم أعداءه في مكان حصين بالقرب من ماردة حيث هزم واضطر إلى التراجع وأصبح في مأزق حرج، ولكن ساعده الحظ بأن جاء يوم عيد واحتفل به القوم وأهمل الجند أمر ثعلبة فأخذهم على غرة وشتت شملهم وسبى نساءهم وأسر من رجالهم عشرة آلاف، وفي صبيحة الجمعة من شهر مايو عام ٧٤٣ ساقهم إلى الأسواق إذلالا لقومهم وبيعوا بأبخس الأثمان ولقد بيع رجل من مكة بكلب وآخر بعنزة.

في هذا الظرف فكر قوم من عقلاء الطرفين أن يضعا حدا لهذه الفظائع مخافة أن ينتهز المسيحيون هذه الفرصة ويخرجوا عليهم؛ فأرسلوا إلى حنظلة الكلبي والي إفريقيا وسألوه أن يرسل إلى الأندلس حاكمًا قديرًا يستطيع إعادة الأمن إلى نصابه فأرسل إليهم أبا الخطار الكلبي، ولما كان من الشام خضع لأمره جند ثعلبة وفرح به العرب وكانت أول أعماله أن

أطلق سراح الأسرى وبحزمه استطاع أن يعيد السكينة إلى البلاد وأمن ولدي عبد الملك على حياتهما ونفى ثعلبة وزعماء آخرين، وفر إسماعيل بن حبيب إلى إفريقيا وأرضى جند الشام ووزع عليهم أرضًا يزرعونها فهدأت الحالة وركن عرب الشرق إلى الاشتغال بالزراعة وغيرها.

٣- صميل بن حاتم بن شامر في الأندلس

شامر كوفي وكان قائد الأمويين في مقاتلتهم الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو الذي أصر على قتل الحسين، وعليه إثم ذلك وهو الذي حمل رأس الحسين إلى يزيد الأول، ولما ثأر الخوارج لأنفسهم قتل المختار الشيعي شامرًا ورمى بجثته للكلاب، وعندئذ هرب حاتم أبو صمويل إلى قنسرين ولما جهز هشام جيشه لإخضاع البربر في إفريقيا كان صميل ضمن من ذهبوا ولما دخل بلج الأندلس كان فيمن معه وأصبحت له منزلة بين بني قيس وعدُّوه زعيمًا لهم.

رأينا ما كان من مجيء أبي الخطار إلى الأندلس وسعيه في تهدئة الحال ونجاحه في ذلك ثم قلب لبني قيس ظهر المجن وشدد عليهم وأذلهم، ولقلة عددهم لم يجرؤوا على الخروج عليه ثم حدث أن تقاضى أمامه شخصان أحدهما من كنانة والثاني من كلاب فانحاز إلى الكلابي بدون حق، ولما علم صميل بما كان ذهب لمقابلة أبي الخطار في قصره وناقشه الحساب فأمر الأمير بطرده فخرج وفي طريقه لقيه شخص فقال له: "ما أصاب عمامة ابن جوهن" فكان جوابه "سأنظر إذا كان حولي قوم يصلحونها" ولم يكن صميل ممن يستهان بهم كما ظنه أبو الخطار.

وصل صميل إلى بيته ودعا قومه للمشورة؛ فقالوا: "بيِّن لنا رأيك وستجدنا صابرين لا نعصي لك أمرًا"؛ فقال: "لا تنزعن الملك من يده"، ثم سعى في دعوة بني لخم وعليهم يوسف وبني جذيمة ورئيسهم ذؤابة إلى جانبه ونجح أيضًا في استمالة أبي عطا زعيم غظفان إليه ولما اتفقت كلمتهم جمعوا قواتهم في مقاطعة شدونة (إبريل ٧٤٥م) وجعلوا الأمر لذؤابة، ولما علم أبو الخطار بخروجهم للقتال سار إليهم وكان في جيشه يمنيون، وقابل أعداءه عند نهر بقة (جواديليت) فقصر اليمنيون في مقاتلة إخوانهم من لخم وجذيمة ثم عمدوا إلى الفرار فوقع التقتيل في أصحاب أبي الخطار من بني كلاب ففر منهزمًا بمن بقي حوله، وجدَّ أعداؤه في طلبه فضيّقوا عليه وشدوا وثاقه وساقوه أسيرا مهانًا إلى قرطبة ودخلها ذؤابة فاتحًا واعتلى عرشها.

ولم يرض بنو كلاب بالهزيمة نهاية لأمرهم؛ فقام أحدهم (عبد الرحمن بن نعيم) ودخل قرطبة في ليلة مظلمة ومعه أربعون فارسًا ومائتا رجل، وأخذ الحراس على غرة وأخرج أبا الخطار وقاده إلى باجة حيث كان بنو كلاب وبعد سنة من مجرى هذه الحوادث مات ذؤابة، وفي يناير عام (٧٤٧) اختار الزعماء "يوسف بن عبد الرحمن الفهري" أميرًا وكان ذلك حسب إرادة صميل وقد أراد من اختياره يوسف أن يكون آلة في يده يديرها كيف شاء وأصبح صاحب الكلمة النافذة في البلاد وحدثته نفسه أن يتخلص من حلفائه بالأمس جماعات اليمنيين معتمدًا على نصرة بني معدلة؛ فخرج على جزيمة وسلب زعيمهم اين حريث حقه فوضع هذا أمره مع أمر أبي الخطار واتفقا على أن يعملا معا وتكون الإمارة لابن حريث،

وانضم إليهما جند اليمن عامة كما أيد بنو معد يوسف والتفوا حوله فكان الجار ينعزل عن جاره والصديق يفارق صديقه ويعتذر كل للآخر عما قد يكون من أمرهما إذ تلاقيا في الميدان.

المعركة: دار القتال على الضفة المقابلة لقرطبة واشترك في النضال شجعان الطرفين وأنبلهم ويحث كلٌّ عن خصمه فكانت رجلا لرجل، وغابت الشمس ولم يظفر أحدهما بالآخر وعندئذ رأى صميل أن يستنجد برعاع قرطبة؛ فجاءه منهم نحو أربعمائة، وعند وصولهم انقضوا على أصحاب ابن حريث وهزموهم، ووقع أبو الخطار أسيرًا فغاظه أن يهرب شريكه ابن حريث بحياته فدل الأعداء عليه فقادوه إلى الأسر ثم ضربوا رقابهما. تم الأمر ليوسف ورأى عندئذ أن يتخلص من سيطرة صميل عليه فعيَّنه حاكمًا على سرقسطة، وإليها ذهب عام ٧٥٠م وفي تلك السنة بدأ قحط عم البلاد ودام خمس سنوات فهلك الناس جوعًا وخرج الكثير من عرب المغرب إلى إفريقيا، وفي ذلك الظرف ظهر صميل بنفسية غير نفسيته الأولى نسي غضبه وعداءه وعصبته؛ ففرق الأموال وأهدى العبيد ووزع الخبز على كل من كان في حاجة إليه، ورغم ذلك لم يستطع صميل جذب القلوب إليه وعدوا عمله هذا بمثابة هدنة قصيرة الأمد حتمتها الظروف.

٤- ظهور عامر وحباب القرشيين

كان ليوسف أمير قرطبة قائد قرشي يدعى عامرًا، وكان له الفضل في إخضاع المسيحيين في الشمال فطلب إلى مليكه أن يقطعه إمارة وهاله أن يرفض طلبه فصمم على خلع يوسف وفاوض اليمنيين في ذلك سرًا، وهنا

أشار صميل على يوسف بالتعجيل بقتل عامر فهرب القائد يريد شمال البلاد حيث جمع وافر من اليمنيين في سرقسطة، وما لبث أن ظهر قرشي آخر يدعى حباب وانضم لوقته إلى عامر ولحق به عند سرقسطة ثم دعوا اليمنيين في كافة أنحاء الأندلس والبربر أيضًا إلى مقاتلة يوسف وصميل على زعم وصول أمر من خليفة بعداد بذلك، ولقد تمكنا من هزيمة جيوش صميل ومحاصرته في مدينة سرقسطة غير أن الأمويين في بلنسية وبني قيس وبني كلاب وبني محارب وبني سليم وبني بكر بن وائل وبني علي ساروا وجدُّوا لإنقاذ صميل، ولمَّا رَآهُم المحاصرون تخلوا عن الحصار ولاذوا بالفرار، ونجا صميل مما كان أحاط به (٧٥٥م – ١٣٨هـ) وما كانت نصرة الأمويين له إلا لأنهم أرادوا منه رأيًا حازمًا وقائدًا مجربًا في ظرف مهم أحاط بهم.

(عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان)

(الملقَّب بالداخل، وصقر قريش)

أبوه معاوية بن هشام، وأمه بربرية اسمها راح، ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة بدير حنا من أرض دمشق، وقيل بالعليا من تدمر، ومات معاويهة في أيام أبيه هشام سنة ثمان عشرة ومائة فكفله وإخوته جدهم هشام، خرج من الشام عام ١٣٢ ودخل الأندلس عام ١٣٨ وتوفي سنة ١٧٢ وقيل سنة ١٧١ فكانت مدة ملكه ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعة أشهر.

وكان عبد الرحمن أصهب خفيف العارضين بوجهه خال، طويل القامة نحيف الجسم، له ضفيرتان، أعور أخشم، قال الحجازي فيه:

لكـــــن عـــــوير وفي بذمتـــــه　　　لا عـــــور شـــــأنه ولا قصـــــر

وقال فيه أبو جعفر المنصور: لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذي الفذ في جميع شئونه وعدمه لأهله ونسبه تسلية عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده بخصوصيته وأخضع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال رغبتها بقضية سياسته حتى انقاد له عصيهم وذلك لهم أبيهم فاستولى فيها على أريكته قاهرًا لأعدائه حاميًا لذماره مانعًا لحوزته خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه.. إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه.

هروب عبد الرحمن: في عام ١٣٢ هـ سقطت الدولة الأموية وقامت دولة العباسيين وأول خلفائها أبو العباس السفاح وأرسل عمه عبد الله بن علي إلى الشام واليًا عليها فجدَّ هذا في إبادة الأمويين فاختفى الكثيرون منهم وفر آخرون إلى مصر وإفريقيا فلم يطمئنوا لأمر العفو والأمان، وذهب سبعون منهم ضحية تصديقهم تلك الحيلة، وممن نجوا بأنفسهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام؛ فقد علم بمهاجمة داره وقتل أخيه يحيى فانتظر ظلمة الليل وقصد داره وأخبر أخواته بعزمه على الهرب إلى قرية على شط الفرات وطلب إليهن اللحاق به متى استطعن ذلك وفيما كان من أمر هروبه بعد ذلك نذكر ما قاله عن نفسه:

"وإنني لجالس يومًا في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بي وابني سليمان ولدي يلعب قدامي إذ دخل الصبي فازغًا باكيًا فأهوى

إلى حجري فجعلت أدفعه لما كان بي ويأبى إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع فخرجت لأنظر فإذا بالروع قد نزل بالقرية ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحطة وأخ لي حدث السن كان معي يشتد هاربًا ويقول لي: "النجاة يا أخي فهذه رايات المسودة" فضربت بيدي إلى دنانير تناولتها ونجوت بنفسي والصبي أخي معي وأعلمت أخواتي متوجهي وأمرتهن أن يلحقني ومولاي بدر معهن وخرجت فكمنت في موضع ناءٍ عن القرية فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثرا ومضيت ولحقني بدر فأتيت رجلا من معارفي بشط الفرات وأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري فدل على سوء له فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا تنادينا من الشط: "أرجعا لا بأس عليكما" فسبحت حاثا لنفسي وسبح الغلام أخي فلما قطعنا نصف الفرات قصَّر أخي فالتفت لأقوي من قلبه وإذ هو أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه فناديته "تقتل يا أخي إلي إلي" وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشي الغرق فاستعجل الانقلاب نحوهم وقطعت أنا الفرات ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه فاحتملت فيه ثُكلا ملأني مخافة ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ثم خرجت هاربًا أروم المغرب حتى وصلت إلى إفريقيا"

وهناك لحق به مولاه بدر وسالم ومعهما دنانير وجواهر.

كان على إفريقيا إذ ذاك عبد الرحمن بن حبيب الفهري، وكان يأمل أن تكون له ولاية هذا الإقليم مدى حياته ولنسله من بعده وأهمل أمر

العباسيين وحدثته نفسه أن يقتل عبد الرحمن الأموي فأشار عليه يهودي كان بطرفه أن يتجنب ذلك فاكتفى بقتل ولدي الوليد الثاني وفر من بقي من الأمويين في واسع بلاد المغرب. وجدَّ عبد الرحمن في الهرب حتى وصل المغرب الأقصى واختفى مرة ببرقة ثم نزل على بني رستم ملوك تاهرت ثم احتمى بقبيلة مكناسة وقضى في ذلك خمس سنوات ثم طرده أهل مكناسة فنزل بين أخواله من قبيلة نفزة: أخيرًا يئس من أهله في إفريقيا ففكر في بلاد الأندلس.

كان عبد الرحمن يعلم الكثير عن بلاد الأندلس مما أخبره به سالم مولى أخته كما عرف ما كان بها مما مر به من حوادث أيام اختفائه ببلاد المغرب فوجد فرصة سانحة توصله إلى غرضه إن هو استعمل الروية والعقل وقد خصه الله بجزء وافر من ذلك – أرسل بدرًا إلى قومه بالأندلس وزوده بكتاب منه إليهم شكا فيه ما لاقاه من اضطهاد في إفريقيا وأظهر رغبته في الإقامة بينهم، ولما كان لا يأمن غدر يوسف به طلب منهم حمايته ومعونته ثم ذكرهم بمجد بني أمية وأحقيتهم في امتلاك تلك البلاد ووعدهم إن هم ناصروه أن يصل بهم إلى ذلك ويجعل لهم المكانة العليا في البلاد، ولما وصل بدر سلّم الكتاب إلى عبيد الله ثم قدمه إلى ابن خالد زعيمي جند الشام فحددا يومًا للنظر في الأمر وضما إليهما يوسف بن بخت أمير جند قنسرين وبحثوا الأمر جديًا فألفوه جديرًا باهتمامهم على ما فيه من مصاعب ورأوا أن لا بد لهم من استشارة صميل؛ فذهبوا فيمن لفك الحصار عنه في سرقسطة كما مر بنا.

ورأينا ما كان من نجاح المنقذين، والآن نبحث ذلك الأمر المهم الذي

أدى بهم لمعاونة صميل؛ طلب إليه زعماء الأمويين أن يسمح لهم بمقابلة خاصة لا يبوح بسرها ولما وافق أطلعه عبيد الله على ما جاء بدر من أجله وقرأ له كتاب عبد الرحمن وطلب إليه رأيه فقال صميل: "أمهلوني إن الأمر ذو بال ولكم مني جواب عما قريب".

إذ ذاك كان يوسف أمير البلاد (٧٥٥) يجهز الجند لمعاقبة الثوار وأرسل في طلب زعيمي الأمويين وأمرهما أن يضما أتباعهما إلى رجاله فكان جوابهما أن ذلك لا يستطاع الآن فقد أضعفهم الجوع ولقد ذهب من يستطيع الحرب إلى معاونة صميل وعادوا وقد ذهب بقوتهم طول الطريق وبرد الشتاء؛ فرغبهما في مساعدته بألف دينار فرفضاها لقلتها ولما لم يعدهما أكثر منها خرجا يقولان: "لن يجد منا مناصرًا أو معينًا". وما لبثا أن فكرا فوجدا أن ذلك الأجل قد ينفعهما فيما سيكون من أمرهما فعادا وأخذا الدنانير وذهبا إلى حيث أتباعهما في مقاطعة الفيرا ووزعا عليهم ربع ما حملا.

خرج يوسف من قرطبة يريد طليطلة ومنها إلى سرسقطة حيث كانت الثورة لمعاقبة أهلها وبالقرب من ممرات جبال الشارة. انتظر تجمع الرجال من مختلف الجهات وقدم عليه الأمويان فسألهما عن أتباعهما فأجاباه: أن الربيع يبشر بمحصول وافر والجمع بعد ما لحقته من قحط شديد يتعطشون لجمعه؛ فأمهلهم قليلا، وإنك لملاقي أعداءك بهم قبل غيرهم". ولما سار يوسف بجيشه عادا إلى طليطلة وفي طريقهما قابلا صميلا يريد اللحاق بيوسف وسارا إلى جانبه ثم أسر إليه عبيد الله أنه يريد مخاطبته في أمر عبد الرحمن بن معاوية فأجاب: "بحثت في الأمر مليًّا ورأيت أن عبد الرحمن

جدير بارتقاء عرش البلاد وإني أعده المساعدة فاكتب إليه بذلك". ثم قال: "وأما يوسف فسأطلب إليه أن يزوج ابنته أم موسى لعبد الرحمن وينزل عن إمارة الأندلس فإن قبل كان له منا الشكر والثناء وإلا علونا رأسه بسيوفنا وأراه لا يستحق غير ذلك". وسار كل في طريقه، ولما خلا صميل بنفسه رأى أن عبد الرحمن سيقيم ملكا بالأندلس ويستأثر بالسلطة دون أي شخص آخر وفي ذلك عليه وعلى غيره وبال فأمر أحد أتباعه باللحاق بعبيد الله وزميله فجد الفارس في أثرهما ولحق بهما وأوقفهما، وما لبث أن قدم صميل وقال لهما: "رأيت خيرًا ألا يكون الأمر لصاحبكما وإني على أحسن حال مع يوسف فاحذرا ما تفعلان وإن أول سيف يجرد من غمده سيكون سيفي ولكن ليس ذلك لنصرة أميركما"، ثم أمرهما بالمسير والتفكير في شأنهما، فأجاباه: "ما كان لنا أن نخرج على ما ترى".

وجدَّ الأمويان أمامهما وذلك أن يستنصرا جند اليمن وبذلك تتاح لهم فرصة الانتقام من عرب الحجاز فمرا بزعمائهم فلقيا مؤازرة تحقق غرضهما فانتهزا فرصة اشتغال صميل ويوسف بثورة سرقسطة وأسرعا بدعوة عبد الرحمن للمجيء إلى الأندلس.

ولهذا الغرض سار تمام وبصحبته إحدى عشر رجلا وعبر البحر يحمل فيما كان يحمل خمسمائة دينار ولا شك في أنها من تلك الدنانير التي أعطاها يوسف لعبيد الله وما كان يجول بخاطر يوسف أن تنفق دنانيره في الوجه الذي صرفت فيه أي معونة من جاء لانتزاع الملك من يده.

عبد الرحمن في إسبانيا

كان عبد الرحمن على أحر من الجمر في انتظار عودة بدر بين يأس وأمل، وفي مساء ليلة بينما هو يصلي صلاة المغرب أبصر سفينة تقرب من الشاطئ ثم رأى شخصًا تبينه أنه بدر مولاه يقفز إلى اليم ويجتاز البحر سباحة ثم صاح: "أبشر يا مولاي" وقص عليه ما كان ثم قابل عبد الرحمن من جاء بصحبة بدر وكان أولهم أبا غالب تمام فقال عبد الرحمن: "تم أمرنا وغلبنا بقوة الله" وما لبث أن سارت بهم السفينة باسم الله مرساها ومجراها وأقلتهم إلى ساحل البيرة في ربيع الآخر سنة ١٣٨ (سبتمبر ٧٥٥) وكان في انتظاره عبيد الله وابن خالد ثم سار عبد الرحمن إلى قصر ابن خالد وأقام في ضيافته أيامًا ثم غادره إلى قصر عبيد الله.

نعود الآن إلى ما كان من أمر يوسف وصميل وقد تركنا الأول فيما تقدم يخرج من طليطلة إلى سرقسطة فنقول إنه أدرك عدم وفاء الأمويين بوعدهم ولما أعياه الانتظار سار بجيشه ووصل سرقسطة فوجد الثائرين لاذوا بالفرار وتقدم زعماؤهم يطلبون الصلح والأمان فقبل منهم على شريطة أن يقدموا له من القرشيين عامرًا وابناه: وهب، وحباب؛ فسلموهم إليه فأمر بوضعهم في الأغلال ثم جمع جيشا من رجاله لمحاكمتهم وكان من رأي صميل أن تضرب أعناقهم فعارضه القرشيون في ذلك فاكتفى يوسف بسجنهم. ولقد ساء صميلا عدم احترامه رأيه فصمم في نفسه على الانتقام ودبر للأمر عدته فإذا كانت ثورة المسيحيين في الشمال في مقاطعة باسك أشار صميل على يوسف أن يرسل جزءًا من جيشه إليهم ويجعل قيادته لابن شهاب والحسين اللذين عارضاه في رأيه بشأن مصير القرشيين

على أمل ألا يعودا من ميدان القتال أو لعلهما يفسحان له المجال ولو لوقت قصير فوافقه يوسف وعاد إلى قرطبة وأقام ابنه عبد الرحمن حاكمًا على الحدود وفي طريقه على وادي الرمل وهناك أتاه رسول يحمل أنباء الحملة الموجهة لمقاتلة المسيحيين "هزمت الحملة شر هزيمة وقتل ابن شهاب وعاد حسين بمن نجا بحياته وهم نفر قليل إلى سرقسطة".

سر ذلك صميلا وفي صبيحة اليوم التالي أوعز إلى يوسف أن يقتل القرشيين فقتلوا وكان أثر الفعلة شديدًا في نفس يوسف فذهب لوقته إلى مخدع خاص ببناته وحاول الرقاد فلم يستطع وبينما هو كذلك سمع صياحًا عاليا "رسول من قرطبة" فسأل عن الرسول فقيل له عبد يركب بغلة أم عثمان فقال: "إليّ به" فجيء بالرسول فقدم إليه خطابًا: "لقد نزل بالأندلس حفيد هشام وإنه يقيم الآن بقصر عبيد الله بن عثمان ولقد نادى به الأمويون أميرًا وبايعوه وقد خرج لملاقاته أمير مرسية بمن حوله فهزم، فأسرع إلى ما تراه".

أرسل يوسف في طلب صميل ولما جاء سأل الأمير:

- ماذا حدث يا مولاي حتى أرسلت في طلبي في مثل هذا الوقت لأشر هناك إن شاء الله.
- أقسم بالله.. إن الله أراد أن يعاقبنا بقتلنا أبرياء قريش
- دع عنك هذا وأخبرني بما كان.
- وصلني خطاب من أم عثمان (زوج يوسف) سيقرؤه لك خالد.

وقريء الكتاب؛ فقال صميل:

– الأمر مهم والرأي أن نسير إليه الآن فيمن حولنا ولا أراه إلا قليل الرجال وهزيمة واحدة تنزل به كافية بإحباط غرضه ونجاح أمرنا.

فقال يوسف: "هذا هو الرأي، ولنسر لساعتنا".

لم يكن جيش يوسف راضيًا بحاله: تأخرت أعطيتهم. ساءهم قتل القرشيين. قتل منهم الكثيرون فيما تقدم من حروب فإذا كان المساء ذهب أكثرهم إلى بيوتهم وطلب من بقي إلى صميل أن يؤخر الحرب حتى ينقضي الشتاء فرفض ما طلبوا وأجبرهم على المسير وفي طريقهم أمطرتهم السماء وابلا فأدرك يوسف العاقبة فأمر بالعودة إلى قرطبة والذي دعاه إلى ذلك فضلا عما تقدم أنه كان يأمل أن عبد الرحمن لا يبغي أكثر من عيش رغد في الأندلس وغاية أمنيته أن يتزوج بإحدى بناته فرأى أن لا غضاضة على نفسه في تحقيق ذلك.

ولما وصل يوسف إلى قرطبة أرسل إلى عبد الرحمن عبيدًا القيسي وخالدا كاتبه وعبسي موزع أرواق الجند وأرسل معهم ثيابًا من الديباج وجوادين وبغلين وعبدين وألف دينار وأمرهم بمفاوضته في أن يعيش في ظل الأمير ولما وصل الرسل وجدوا القصر تحيط به الجند التي وفدت على عبد الرحمن من أهل اليمن ودمشق والأردن وقنسرين ولما قابلوا عبد الرحمن أخبروه بعطف الأمير عليه وأنه لو ذهب إلى قرطبة لكان موضع كرمه واحتفائه فأجاب زعماء الأمويين إن ذلك أحب شيء إليهم وللأمير أن يوقف أن عبد الرحمن ما جاء لانتزاع الإمارة منه ولكنه يطالب بما يرثه شرعًا عن جده هشان وقبل عبد الرحمن ذلك مضطرًا بحكم الظروف

المحيطة به وطلب إلى عبيد الله أن يكتب رد الخطاب بما يراه ولما بدأ يكتب تبسم خالد وقال:"سترى العرق يسيل من ساعدك قبل أن يكتب ما تريد".

– صه أيها الكاذب لن ترى عرقًا يجري من ساعدي لأنه لا رد علي مثل هذا الخطاب. ورماه في وجهه وضربه على أم رأسه ثم أمر به فوضعت الأغلال في عنقه ثم قال"هذا أول انتصار إنه يدبر أمر يوسف وبدونه لا يستطيع يوسف أن يعمل شيئًا. فتدخل عبيد القيسي وقال (يعلم أبو عثمان أن خالدًا رسول بعيد عن الأذى لا يمسه سوء) فأجابه عبيد الله أنت الرسول ولك منا الأمان فسر إلى صاحبك تحرسك عناية الله وسار عبيد القيسي إلى قرطبة وأعلم الأمير وصميل بما كان فانقطعت المفاوضات.

يوسف وعبد الرحمن:

كان الفصل شتاء وفي انتظار قواته قام عبيد الله بأمر أمير بني أمية كاتب القبائل على اختلافها أن تتهيأ لنصرته فوعدة جند اليمين ذلك وانقسم البربر قسمين وانضم إليه ستة من أمراء قيس نذكر منهم جابر بن شهاب وأراد أن يثأر لقتل أبيه في ثورة المسيحيين في الشمال وحسين القرشي صاحب شهاب وأبا بكر بن هلال العبيدي لشيء في نفسه من صميل والثلاثة الآخرون كانوا لا يزالون يذكرون يوم الثقيفة – انقضى الشتاء وجاء الربيع واستعد الطرفان وبدأ عبد الرحمن المسير غربا في أرض جند اليمن ليضمهم إلى صفوفه ودخل عبد الرحمن مدينة ارقيدونه صبيحة يوم عيد الفطر (يوافق ٨ مارس سنة ٧٥٦ ودعا الخطيب يومئذ باسم

الأمير بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام أمير الأندلس. وسار في جيشه من أهل الإقليم نفر غير قليل فضلا عن ربعمائة من فرسان عرب المغرب ثم سار إلى شدونة حيث بنو كنانة من معد فوجد أهلها قد خرجوا لنصرة يوسف في جمعهم.

ولما قرب عبد الرحمن من إشبيلية خرج إليه أبو الصباح وابن حياة ملامس الحضرموتي ورحبا به، ودخل المدينة في منتصف مارس وبايعه أهلها وعندئذ علم بخروج يوسف من قرطبة يريد إشبيلية ويسير بحذاء الضفة اليمنى لنهر الوادي الكير فخرج هو أيضًا وسار إلى قرطبة بحذاء الضفة المقابلة عله يباغتها ويستولي عليها معتمدًا على كثرة أتباع الأمويين بها وأنصارهم اليمنيين. وكان طبيعيًا أن يصلا إلى مكان يصبحان فيه وجهًا لوجه ويفصل بينهما النهر وفكر عبد الرحمن أن يتابع سيره ليلا إلى قرطبة ولكن يوسف علم بذلك، وجدَّ كل منهما لدخول قرطبة قبل الآخر، وأخيرًا أدرك عبد الرحمن أن ذلك غير مستطاع فأمر بالثبات.

وفي يوم الخميس ١٣ مايو الموافق وقفة عيد الأضحى خطب عبد الرحمن في قومه وأبان لهم أنه عند إرادتهم سواء أرادوا صلحًا أم حربًا فنادوا بالقتال فقال: "لكم ما تشاءون واليوم نعبر النهر ولله التدبير في الغد" ثم قال: "إن في مثل ذلك اليوم انتصر الأمويون في معركة راهط على قائد فهري يناصره وزير قيسي، فليكن الغد مجددًا لذكرى هذا الانتصار" ثم رتب جيشه وعين قواده ووصلت به حيلته أن أرسل إلى يوسف أنه على استعداد لقبول الصلح الذي سبق أن عرض عليه والذي حاله دون الوصول إليه وقاحة خالد وأنه سيعبر النهر في الغداة للصلح والتسليم

فضلا عن أن حالة جنده تستدعي العجلة في ذلك. وأما وقد وصلا إلى هذا الموقف السلمي فإنه يأمل أن يمده يوسف بمؤن تنقذ الرجال من الهلاك.

وقع يوسف فيما نصب له عبد الرحمن من حبائل فصدق رسالته وأرسل إليه أغنامًا وماشية.

وفي يوم الجمعة يوم العيد تبين يوسف أنه خدع؛ وجد جيش عبد الرحمن يصطف استعدادًا للقتال فأخذ هو أيضًا أهبته لذلك وظهر عبد الرحمن على ظهر جواد أندلسي وإلى جانبه عبيد الله يحمل علمًا ثم ابتدأ القتال وما لبث أن رجحت كفة عبد الرحمن وقد استطاع فرسانه أن يهزموا الجناح الأيمن من جيش يوسف وكذلك فعلوا بقلبه وعندئذ لاذ يوسف وصميل بالفرار طلبًا للنجاة ولم يثبت للنهاية إلا جماعات بني قيس فإنهم لم يسلموا إلا بعد أن سقط رؤساؤهم في حومة الوغى، وإذ ذاك وقد تم النصر لعبد الرحمن جدَّ أُتباعُه في النهب والسلب. ولم تشغلهم كثرة الأسلاب في ميدان القتال عن الإسراع إلى قرطبة ونهب قصر يوسف ثم الذهاب إلى قصر صميل وأخذ كل ما فيه وقد عثر رجلان من طي على صندوق به عشرة آلاف دينار. وما كانت أشد حسرة صميل وقد رأى من على ذروة تل مجاور لقصره الرجلين يسيران بالغنيمة.

دخل عبد الرحمن قرطبة وسار إلى قصر يوسف وأخرج من دخله للسلب والنهب ومنع القوم من الاعتداء على نساء القصر وقد رآهن يحيط بهن الرجال. فناشدته أم عثمان وإلى جانبه ابنتان لها (خذ بناصرنا كما أخذ الله بناصرك) فدعا بصاحب الصلاة من أتباع يوسف وأمره أن

يحتفظ بهن في أحد الجوامع. وهنا أهدته إحدى البنات جارية تدعى حللا وهي التي رزق منها عبد الرحمن ابنه هشام ثاني أمراء بني أمية. وفي ذلك اليوم دخل عبد الرحمن جامع قرطبة وصلى بالقوم وخطب فيهم أنه سيكون حاكمًا عادلًا يبتغي رضاء الله ورسوله.

ما كان من أمر يوسف وصميل

اتفقا أثناء هروبهما على أن يذهب يوسف فيستنجد بأهل طليطلة ويجمع صميل حوله رجال بني معد، وما لبث أن جاء يوسف إليه في جند سرقسطة وأهل طليطلة وبتلك القوة دخلا قاعدة مرسية، ثم علم يوسف بمسير عبد الرحمن إليه فأوعز إلى ابنه أبي زيد أن يأخذ طريقًا غير طريق عبد الرحمن ويسير إلى قرطبة ويدخلها بغتة، وتم ذلك كما أراد يوسف واضطر عبيد الله أن يحتمي بقلعة جامع قرطبة، ثم أُجبر على التسليم ولم يمض على ذلك أيام حتى علم أبو زيد بعودة عبد الرحمن فأسرع إلى الهرب وأخذ معه عبيد الله أسيرًا وسار في طريقه إلى حيث كان أبوه. وما كان عبد الرحمن ليترك الأمر بمقابلته فأمضاه في صلح يأمنان به على حياتهما ويحتفظان بأملاكهما ويعترفان له بإمارة الأندلس، فقبل عبد الرحمن ذلك على أن يأخذ أبا زيد وأبا الأسود ولدي يوسف رهينة عنده ثم طلب إليهما أن يطلقا سراح عبيد الله ويعفو هو عن خالد كاتب يوسف وهكذا أُخْلِيَ سبيل عبد الله.

وفي يوليو (٧٥٦) عاد عبد الرحمن إلى قرطبة أميرًا لا ينافسه أحد، ودخلها ويوسف إلى يمينه وصميل إلى يساره وأنزلهما عبد الرحمن منزلة تليق بهما وجعلهما موضع كرمه وعنايته وأصبحا موضع ثقته يستشيرهما في أهم

أموره، ولقد رضي صميل بما صار إليه وكذلك يوسف ولكن كان هناك قوم من القرشيين والفهريين والهاشميين وأولئك ساءهم أن تنزع السلطة التي كانت لهم أيام يوسف من أيديهم فأخذوا يجبذون إليه الهرب وتجديد القتال واسترجاع الملك فأصغى إليهم مليًا ثم عرض الأمر على صميل فأعرض عنه وحقَّر رأيه بنو قيس، وأخيرًا وافقه رجال من أهل ماردة وطليطلة، وعندئذ لاذ بالفرار.. ولما علم عبد الرحمن بذلك وبعد فوات الفرصة أمر بسجن صميل وولدي يوسف، وأما يوسف فقد وصل إلى ماردة وجمع رجالها وانضم إليه بعض عرب المغرب وسار يريد إشبيلية، ولما وصلها وجد حوله عشرين ألفًا من المقاتلين وحاصر المدينة ثم استصغر شأنها فرفع عنها الحصار وعزم على المسير إلى قرطبة نفسها. وفي طريقه إليها خرج خلفه أمير إشبيلية عبد الملك فيمن كان معه فعاد إليهم فارتدوا فتبعهم وكان غرض عبد الملك أن يبعده عن قرطبة حتى يأخذ عبد الرحمن عدته وقد وصل عبد الملك إلى ما أراد ثم ناجزه القتال في معركة بدأت مبارزة رجل لرجل، ثم اشتبك الفريقان فكان النصر لعبد الملك وفر يوسف إلى طليطلة. وفم طريقه تبينه رجل من أهل المدينة فصاح بمن حوله: "إلى خيلكم"؛ فطاردوه ولحقوا به قبل أن يدخل المدينة وذبحوه وحمل عبد الله بن عمرو رأس القتيل إلى أمير بني أمية الذي أمر بقتل أبي زيد وأودع أبا الأسود السجن لمدى حياته. وفي صبيحة يوم وجد القوم صميل جثةً هامدة. ومنعا للريبة سمح عبد الرحمن للقوم بفحص جثته حتى يتأكدوا أنه لم يمت مسمومًا بل ذهب ضحية كثرة الشراب ولكن تحقيق القوم فيما بعد أنه قتل خنقًا وبأمر الأمير.

عبد الرحمن أمير الأندلس

أصبح عبد الرحمن أميرًا على الأندلس، وظل كذلك حتى مماته بعد أن حكمها ٣٢ سنة والذي أيد له حكمه تفرق كلمة رؤساء القبائل المختلفة وبعد همته وسياسته اتبعها لا تخلو من لين ويقظة ومكر وخداع أو شدة تتجسم فيها القسوة وكان في ذلك يعتمد على من حوله من أتباع الأمويين ومن جاء بهم إلى الأندلس من عرب المغرب.

الثورات الداخلية في عهده

(١) في عام سنة ٧٦١ قام الفهريون بثورة بطليطلة، وكان هشام بن عزرة قائدها ولقد استطاع عبد الرحمن إخمادها بعد سنتين من بدايتها (٧٦٣).

(٢) وفي تلك السنة نفسها دخل الأندلس علاء بن مغيث وقد أرسله المنصور ثاني خلفاء بني العباس واليًا من قبله على الأندلس فنزل بإقليم باجة ورفع العلم الأسود وأسرعت إليه القبائل على اختلاف عصبيتها فقوي أمره ثم حاصر قرمونة وكان بها عبد الرحمن وأقام حول أسوارها شهرين وأخيرًا عزم عبد الرحمن على أن يرمي بأخرسهم في كنانته وانتظر فرصة انصراف الكثير من الجند إلى بيوتهم واختار من شجعان جنده سبعمائة رجلا وخرج وأوقد نارًا بالقرب من باب إشبيلية ثم قال: "يا قوم ليس لنا إلا أحد أمرين: موت أم حياة. وهذا غمد سيفي أرمي به إلى النار وإني لأفضل فخار الموت في ميدان القتال على عار الفرار". واقتدى به من حوله ثم انقضوا على المحاصرين

وأعملوا السيوف في الرقاب فتشتت شمل الأعداء ولاذوا بالفرار بعد أن قتل قائدهم وكبارهم وسبعة آلاف من رجالهم وأخذ عبد الرحمن رأس صاحبها ووضع الرؤس في حقيبة واستأجر رجلا من تجار قرطبة وكان أزمع المسير إلى القيروان وكلفه أن يحمل الحقيبة إلى سوق المدينة وأدى التاجر ما كلف به، ولما علم المنصور بما كان قال: "الحمد لله الذي جعل بيني وبين صقر قريش هذه البحار الواسعة"

ومما يُروى أن التاجر حمل الحقيبة إلى مكة وكان المنصور بها.

عقب هذا الانتصار أخضع بدر وتمام طليطلة (٧٦٤) وسلما لثوار زعمائهم وسار بهم بدر إلى قرطبة حيث أمر عبد الرحمن بصلبهم وأراد بذلك أن يضرب مثلا لمن يجرؤ على الخروج عليه.

٣- ثورة أهل اليمن بالأندلس

ثار أولئك القوم يريدون أن يثأروا، ولما نزل بالعلاء بن مغيث وقومه وكان نصيبهم من القتال الهزيمة في النهاية فطلبوا الصلح، وأجابهم عبد الرحمن إلى ما طلبوا.

٤- مقتل أبي الصباح اليحصبي

كان لأبي الصباح – كما مر بنا – فضل في إقامة دولة عبد الرحمن، وكان في نفس عبد الرحمن شيء من جهته بسبب تآمره وآخرين على اغتيال عبد الرحمن فأبعده وجعله حاكم إشبيلية حتى كان عام (٧٦٦) فعزله فنادى قومه إلى مقاتلة عبد الرحمن ولبى نداءه عدد عظيم فخاف عبد الرحمن العاقبة فعمد إلى الخداع فأرسل إليه أمانا مختومًا بخاتمه وطلب

إليه الحضور إلى قرطبة لينظرا معًا في الأمر فسار أبو الصباح في أربعمائة فارس ولما وصل تركهم على أبواب القصر ودخل وحاول عبد الرحمن أن يطعنه بخنجره فقاومه أبو الصباح فدعا الجند فقتلوه ومما يذكر عن شدة حرص عبد الرحمن أنه استطاع رشوة جند أبي الصباح قبل الإقدام على قتله ولقد غضب ابن خالد وزير عبد الرحمن لهذه الطريقة الخبيثة خاصة وأنه كان حامل عهد الأمان إلى أبي الصباح فاعتزل منصبه ورفض العودة إليه بتاتًا.

٥- ثورة البربر

كان يعيش شرقيي الأندلس رجل من قبيلة مكناسة المغربية وكان من المجتهدين في البحث في الدين والأحاديث والتفسير واشتغل بمهنه التعليم وأخيرًا ادعى أنه من نسل علي وفاطمة، وسمى نفسه عبد الله بن مُحَمَّد، وحدث أن سار إلى الإقليم الواقع بين الوادي اليانع ونهر التاجة، ومعظم سكان هذا الإقليم من عرب المغرب، فبث فيهم دعوته فصدقوه وساروا إلى جانبه فاستولى على ماردة وكورة ريا ومادلين وغيرها ثم سار إلى طليطلة فانضم إليه عرب المغرب هناك وهزم جيوش عبيد الله حاكم الإقليم مرارًا ونهب معسكراتهم ثم اعتصم بالجبال فخرج إليه عبد الرحمن بنفسه ودام القتال متقطعًا مدة ست سنوات دون أن يظفر به عبد الرحمن.

وبسبب طول مدة الخلاف ولغياب عبد الرحمن عن قرطبة هذه المدة ظن أنصار أبي الصباح أن في الظرف الحاضر فرصة للانتقام وساروا إلى قرطبة وأسرع عبد الرحمن في أثرهم فلحق بهم وقد نزلوا على ضفاف وادي قيس وبينهم جمع من البربر فتوصل بدهائه إلى استمالة أولئك القوم إليه

حتى إذا بدأت المعركة انضم عرب المغرب إلى جيش عبد الرحمن وكانت النتيجة أن قتل من الثائرين ثلاثون ألفًا، ثم وجه عبد الرحمن عنايته إلى ثورة عبد الله بن مُحَمَّد ولم يستطع إخضاع تلك الثورة إلا بعد عشر سنوات وبعد أن قتل عبد الله رجلا من أتباعه.

٦- المؤامرة الداخلية

وانضمام شارلمان إلى المتآمرين

اتفق الربيع الكلابي حاكم برشلونة وعبد الرحمن بن حبيب الفهري زوج ابنة يوسف مع أبي الأسود بن يوسف (وكان استطاع أن يهرب من سجنه) على خلع عبد الرحمن لشدة كراهيتهم له وفي سنة ٧٧٧ قابلوا شارلمان ملك الفرنجة، وكان من ألد أعداء المسلمين وسألوه مساعدة فيما اتفقوا عليه فلم يتردد في إجابة طلبهم واتفقوا على أن يدخل شارلمان الأندلس بجيشه ويكون الربيع في انتظاره شمال نهر الأبرو بمن جمع حوله وينضم إليه وإذ ذاك يدخل الأندلس ابن حبيب من بلاد المغرب في جيشه بجنده من أهل إفريقيا ويرفع العلم الأسود ويدعو القوم إلى طاعة العباسيين حلفاء شارلمان وإذ كان الحلفاء فكروا مليًا في وضع خطتهم فإنهم فشلوا في تنفيذها، وذلك أن عبد الرحمن بن حبيب نزل بجند البربر في أرض تدمير قبل أن يدخل شارلمان بلاد الأندلس، ولما طلب إلى الربيع أن يسير لنصرته أجابه أنه حسب الاتفاق كان عليه أن ينتظر في الشمال مجيء شارلمان فظن ابن حبيب أن في الأمر خيانة من صاحبه فسار إليه وقاتله ولكن هزم فعاد إلى تدمير حيث قتله أحد أتباعه المقربين من عرب المغرب،

وكان ذلك بايعاز من أمير الأندلس.

عقب ذلك دخل شارلمان بلاد الأندلس ولم يجد مساعدة تذكر من أبي الأسود فاعتمد على الربيع وجالندو المسيحي وكان الربيع جمع حوله قوة وانضم إليه الحسين بن يحيى الأنصاري (من نسل سعد بن عبادة) واستولى على سرقسطة فسار إليها شارلمان ولما اقترب منها ورآه المسلمون استعرت الغيرة الإسلامية في صدورهم ونقموا على الربيع سعيه في نصرة المسيحية على الإسلام وكبر على الحسين أن يسقط قدر نسبه وأخيرًا وجد الربيع نفسه وقد نفر القوم من حوله فخاف أن يتهمه شارلمان بالخيانة فوضع نفسه بين يديه وعندئذ أخذ ملك الفرنجة يعد نفسه لدخول سرقسطة عنوة وبينما هو كذلك بلغه خروج وتكند على ما كان بين الفرنجة والقوط وأنه هيج قبائل الساكسون واخترق البلاد حتى ضفاف الرين فاضطر شارلمان أن يسرع في العودة من نهر الأبرو إلى الرين. ولما كان يجتاز ممرات رونسسفال الشمالية حيث الغابات والجبال انقض مسيحيو مقاطعة باسك على مؤخرة جيشه وقتلوهم عن آخرهم واستولوا على الأسلاب ولاذوا بالفرار، وهكذا فشلت المؤامرة على يد مدبريها.

أما عبد الرحمن فقد انتهز من تلك الحال فرصة ليوقع بالثوار ومسيحيي الشمال فسار إلى سرقسطة وحاصرها وبعد قليل سلم الحسين بن يحيى فدخلها عبد الرحمن ووجد أن الربيع قد قتل غيلة في الجامع بإيعاز الحسين بن يحيى، وعفا عبد الرحمن عن الحسين، ولكن هذا حدثته نفسه أن يتآمر ثانية فقبض عليه عبد الرحمن وأمر به فقطعت يداه وقدماه ثم ضرب حتى مات وسار من سرقسطة أمير الأندلس إلى إقليم باسك

وأخضعه وفرض الجزية على أهله ثم قابل جيش أبي الأسود وترك منهم أربعة آلاف فريسة للذئاب وقاد أبا الأسود أسيرًا ذليلًا ثم أمر بقتله.

مما تقدم نرى أن عبد الرحمن خرج من جميع حروبه ظافرًا منتصرًا مما مكنه من إقامة ملك عظيم في بلاد واسعة وحكمها بيد صلبة لا تلين جعلت القوم يخشون بأسه وفي نفس الوقت يكرهونه ولقد تغالى في شدته حتى تفرق من حوله أقرب الناس إليه فمن ذلك عزله عبيد الله ونفي مولاه بدر إلى الحدود. وانتهى الأمر به إلى أن رأى الأمويين أنفسهم يتآمرون عليه وهو الذي جمع شتاتهم وبنى لهم مجدًا وعزًا. ولقد علم عبد الرحمن بالأولى من سلسلة المؤامرات فقبض على زعمائها أميرين وثلاثة من الأشراف وأمر بضرب رقابهم ثم كانت الثانية ومدبرها هذيل بن صميل وكانت عاقبته الإعدام وكان لموقفه هذا أثر عظيم في نفسه فكان يقضي معظم أيامه داخل قصره وإذا خرج أحاط به رجال حرسه من عرب المغرب المرتزقة، وكان كل اهتمامه في آخر أيامه المحافظة على حياته ولم يهتم بأمر البلاد..

ومما يذكره التاريخ لعبد الرحمن أنه جعل للسيف المكانة الأولى في إقامة حكومته وعلى هذا المنوال قامت حكومات من جاء بعده من نسله وقد يكون لهم بعض العذر في ذلك ولكن الحوادث التاريخية دلت في أدوار متعددة على أن العرب لا تقوم بينهم الحكومات الملكية المستبدة وأنهم لا يميلون إلا لنظم وعاداتهم الديمقراطية.

والآن نختم حياة مقيم دعائم ملك الأمويين بالأندلس بأن نقرر أنه كان شهمًا شجاعًا لم يتهاون فيما يقضي إلى انتكاس أمره قاسيًا لم يحجم

عن البطش بكل ما ناوأه فقتل فيمن قتل المغيرة بن أخيه ويرى البعض أن ذلك كان حزمًا منه حيث اتخذ منه وسيلة لتثبيت ملكه واستبدال النظام بالفوضى، وكان يقعد للعامة ويسمع منهم وينظر فيما بينهم ويخلص للحق ويقدر مواهب الرجال فصدق عليه قول القائل:

ولــولا تـكاليــف العلــي ومغـــارم ثقـال وأعقـاب الأحاديـث في غـد
لأعطيـت نفسـي في التخـلي مرادهـا فـذاك مـرادي منشـأت ومقصـدي

ويروى أنه رأى في إحدى حدائق قرطبة نخلة منفردة فقال:

يا نخـــل أنـــت فريـــدة مثلـــي في الأرض نائيـــة عـــن الأهـــل

ومن أبيات له أرسل بها إلى أخته:

إن جســمي كمــا علمــت بأرض وفـــــؤادي وســـــاكنيه بأرض

وكان يجيد النثر سريع الجواب حاضر الذهب وجه عنايته إلى الآداب والعلوم والفلسفة وعني بفني الزراعة والعمارة وجعل قرطبة تحاكي بغداد وأكثر فيها من المدارس.

وفي سنة ١٧٠ بدأ بناء جامع قرطبة المشهور أنفق على بنائه مائة ألف دينار.

هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام

ولد في شوال سنة ١٣٩ خلافته ١٧٢-١٨٠هـ - ٧٨٨-٧٩٦م تولى الملك وهو بماردة وال عليها، وكان أبوه يوليه في صباه ويرشحه للأمر وكان الداخل ما يسأل عن أبنية سليمان وهشام فيذكر له أن هشامًا إذا

حضر مجلسًا امتلأ أدبًا وتاريخًا وذكر أمور الحرب ومواقف الرجال فقال يومًا لهشام لمن هذا الشعر

وتعرف فيه من أبيــه شمائـلا ومن خاله أو من يزيد ومن حــجر

سماحة ذا مع بر ذا ووفاء ذا ونائــل ذا إذا صحــا وإذا سكــر

فأجاب هشام يا سيدي لأمرئ القيس ملك كندة وكأنه قال في الأمير أعزه الله. ولما ولي هشام أشخص المنجم المعروف بالضبي من وطنه الجزيرة الخضراء إلى قرطبة وقال له: "أحب أن أسمع ما عندك" فقال: "اعلم أيها الأمير أنه سوف يستقر ملكك سعيدًا وجدك قاهرًا من عاداك إلا أن مدتك فيه تكون ثمانية أعوام ونحوها" فقال هشام: "ما أخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك والله لو أن هذه المدة كانت في سجدة لله تعالى لقلت طاعة له" وسار في حكمه سيرة عمر بن عبد العزيز فكان يرسل ثقاتة إلى الكور فيسألون الناس عن سير عماله ولم يقعده تعبده عن الاهتمام بأمر ملكه فقد أخضع أريونا وسخر أهلها في حمل التراب منها إلى قرطبة حيث بنى مسجدًا أمام باب الجنان وقاسى من أهل بيته حروبًا وأرسل جنده إلى جليقيا مع يوسف بن نجيه فلقي ملكها بن منده وهزمه وفي سنة ١٧٨ جمع له عبد الملك بن عبد الواحد مال الجلالقة. وهو المجدد لقنطرة قرطبة التي كان بناها السمح بن مالك في خلافة عمر بن عبد العزيز وأكمل بناء جامع أبيه وكان يجمع الزكاة على الكتاب والسنة.

يوم الخندق (في عصر الحكم بن هشام)

كان يقيم بقرطبة وفيما حولها عدد عظيم ممن اعتنق الإسلام من رقيق

الأرض واشتغلوا بالزراعة؛ فتقدمت أحوالهم حتى أغراهم بعض ذوي الأطماع السياسية إلى ثورة انتهت بمأساة تاريخية، وكان قادة تلك الحركة جماعة علماء الدين وكانت غايتهم أن يكون لهم رأي في حكم البلاد وما كانوا يستطيعون الإشارة إلى نواياهم أيام عبد الرحمن فلما كان عصر ابنه هشام وهو على ما بينا من تقوى وصلاح ظهر نفوذ رجال الدين (الفقهاء) وحدث إذ ذاك أن قام مذهب مالك شرقيي البلاد الإسلامية، وكان موضع إعجاب هشام فأرسل الكثيرين ليأخذوا العلم عنه يحملون أجمل الذكرى من أستاذهم إلى أميرهم وأدى ذلك إلى انتشار مذهب مالك في بلاد الأندلس وصار إلى أصحاب ذلك المذهب القضاء والإرشاد الديني ووظائف التعليم..

وانقضى عصر هشام بعد أن قوي مركز الفقهاء وظهر من بينهم زعماء نذكر منهم يحيى بن يحيى من عرب المغرب وعظم شأنه في قرطبة وتاقت نفسه إلى سلطة سياسية تتفق مع منزلته الدينية وعبثًا حاول هو وأتباعه تحقيق غرضهم في عهد الحكم بن هشام فأساءوا سمعته بين رعيته وكان زراع قرطبة أول من نقم على الخليفة وهاجموه مرة وهو في طريقه ورموه بالحجارة فأمر رجال حرسه فأعملوا السيوف في رقاب الثائرين (٨٠٥) وإذ ذاك وقد وصل العداء إلى هذا الحد تآمر يحيى وعيسى بن دينار وآخرون وضموا إليهم بعض الأمراء على خلع الحكم ونقل الملك إلى ابن عمه ابن شماس ولما فاوضوا ابن شماس في ذلك طلب إليهم أولا إطلاعه على أسماء زعماء الحركة فوعدوه أن يزوروه ببيته ويطلعوه على ما أراد.

اطلع ابن شماء الحكم على خبر المؤامرة ومدبرها ولما علم المتآمرون بما كان أسرع إلى الفرار من استطاع النجاة وتمكن الحكم من القبض على سبعين منهم فأمر بهم فصلبوا وسام أهل قرطبة العذاب وهرب يحيى إلى طليطلة وكانت أعلنت خروجها على أمير الأندلس ففكر الحكم في أمرها وأشرك معه في الرأي شخصًا يدعى عمروسًا وأصله مسيحي وكان اعتنق الإسلام ووضعا معًا خطة لإخضاع طليطلة فعينه حاكمًا عليها من قبله (٨٠٧) ورضي به أهلها ووثقوا منه ووافقوا على بناء حصن وسط المدينة.

تم البناء وسار الجند من قرطبة وغيرها تحت أمره عبد الرحمن بن الحكم على زعم إخضاع ثورة في الشمال، وبينما الجند في الطريق إلى حيث الثورة المزعومة أوعز عمروس إلى وجوه طليطلة أن يضيفوا عبد الرحمن فوافقوا وقبل عبد الرحمن ذلك بعد تردد كثير وسار إلى الحصن ثم أمر بإعداد وليمة عظيمة يدعى إليها العظماء والمثرون فإذا كان اليوم المحدد أقبل القوم وأدخلهم الحراس واحدًا بعد واحد وقادوهم إلى خندق حفر وسط الحصن حيث ضربت أعناقهم وقدر عدد من قتل في ذلك اليوم بسبعمائة وهكذا فقدت طليطلة خيرة أبطالها فأذعنت صاغرة.

(الحكم بن هشام)

١٨٠-٢٠٦هـ ٧٩٦-٨٢٢م

ولد عام ١٥٤هـ وأمه جارية اسمها زخرف قام بعد أبيه بعهد منه إليه وقد رأينا فيما تقدم الظرف الذي أحاط به في بداية عهده. وكان ورعًا لحد ما: يجل العلم وأهله، ويحضر مجالس العلماء ولكنه لم ينزل لهم عن قيد

شعرة من أمانيهم في تسيير حكومة البلاد. ومما زاد من كراهيتهم له أنه كان مولعًا بالصيد ولا يعترف بحرمة شرب النبيذ فرماه الفقهاء بأسوأ الصفات مما كان له أكبر أثر في نفوس الشعب. فكانوا يقولون له: "إلى أداء فريضة الصلاة أيها السكير". وكان طبيعيًا أن يلاقي هؤلاء السفهاء جزاءهم إذ صلب الكثيرين منهم ولكنهم بتحريض يحيى الذي عاد إلى قرطبة لم يرتدعوا بل زادوا من هياجهم. وقد حدث أن قتل أحد الجند عاملًا مايو سنة ٨١٤ فهاج الشعب وهاجم الجند الذين ارتدوا إلى داخل القصر بعد معركة عنيفة.

وجد الحكم نفسه في مأزق حرج وتسرب اليأس إلى نفسه وفي هذا الظرف أمر خادمه أن يأتيه بزجاجة عطر فامتثل الخادم وجاء بالعطر فمسح الحكم رأسه بالعطر وقال: "هذا لا يعرف الغوغاء رأسه بين رءوس القتلى" ثم أمر ابن نادر أن يقتل من بالسجن من الفقهاء ثم دعاء ابن عم له يدعى عبيد الله وكان شجاع قومه وأمره أن يفتح لنفسه طريقًا وسط الغوغاء. ويسير إلى أحيائهم ويشعل النار بها فنجح عبيد الله فيما وكل إليه. ولما رأى القوم النار تلتهم بيوتهم وأسرعوا إليها لإخمادها، فخرج الحكم إذ ذاك فيمن حوله من حرسه واقتفى أثرهم فكان هذا يومًا شديدًا على الثائرين إذ نزل بهم الموت من كل صوب ولم ينج إلا ثلاثمائة. فأمر الحكم بهم فصلبت أجسامهم على شاطئ النهر، ثم هدم ما تبقى من مساكن الرعاع وطلبة العلم والفقهاء وأمهلهم ثلاثة أيام يخرجون فيها من البلاد. وجعل الصلب جزاء من يتأخر منهم فخرجوا وذهب بعضهم إلى عرب إفريقيا بين الأدارسة وسار الآخرون وعدتهم ١٥ ألفًا إلى مصر

وأقاموا على مقربة من الإسكندرية. وكانت مصر إذ ذاك ثائرة على الخليفة العباسي وفي حالة فوضى وما لبثوا أن صار إليهم أمر الإسكندرية وقد ظلوا كذلك حتى ٨٢٦ وفي تلك السنة أخضعهم عبد الله بن طاهر بن الحسين أحد قواد المأمون ثم خرجوا إلى جزيرة كريت فامتلكوها واحتفظوا بها حتى امتلكها الإغريق (٩٦١) ولما هدأت الحالة أصدر الحكم عفوه عن المجرمين الفقهاء وغيرهم وعاد يحيى إلى قرطبة وشمله الحكم بعطفه وكذلك فعل بطالوت بعد اختفائه سنة وخلاصة حكمه تظهر في بيت له.

فهـذي بـلادي إنـني قـد تركتهـا مهـادا ولم أتـرك عليهـا منازعًـا

وكان الحكم عالمًا شاعرًا حازمًا قاسي القلب وطد ملكه وقمع أعداءه وكان يقضي كثيرًا من وقته في حدائقه بين غلمانه ونسائه يشرب ويسمع، ومن أثره في الأندلس أن أكثر من الأجناد المرتزقة واتخذ المماليك وبث العيون وتوفي آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته.

عبد الرحمن الثاني (الأوسط)

٢٠٦-٢٣٨هـ ٨٢٢-٨٥٢م

صار إليه الملك بعهد من أبيه إليه ثم لأخيه المغيرة من بعده وكان مولده بطليطلة سنة ١٧٦هـ. تجلت عظمة الملك بالأندلس في عصر عبد الرحمن الثاني: اتخذ من أبهة العباسيين مثلا فجعل له حاشية وجمَّل قرطبة وبنى مساجد وقصورًا وأنشأ حدائق وبساتين وسير إليها الجداول من أعالي الجبال وشجع الأدب وأعطى الشعراء وكان رحيمًا برعيته نقي السيرة والسريرة. جعل أمر ملكه لأربعة: فقيه وهو يحيى ونعرفه فيما مر بنا،

وموسيقي يدعى زريابا وجاريته طروب وخصي اسمه نصر: جعل عبد الرحمن ليحيى أمر القضاء والنظر في كافة الأحوال الدينية فأصبح بين العلماء وبين طبقات الشعب على اختلافها رفيع المنزلة ذا نفوذ وسلطان له أن يعين أو يعزل من شاء من القضاة وكان قاسيًا فهابه الناس وخافوه. ولم يكن زرياب الموسيقار واسمه "علي بن نافع" أقل نفوذًا من يحيى وقد أتى إلى الأندلس من بغداد سنة ٢٠٦هـ وكان قد تعلم فن الموسيقى على إسحق الموصلي وقيل إبراهيم فنبغ وذهب به معلمه مرة إلى الرشيد فغناه

يأيهـا الملـك الميمـون طـائره   هـارون راح إليـك النـاس وابتكـروا

فطرب الرشيد كثيرًا فخاف الموصلي منافسة تلميذه له فخيره بين أمرين أما أن يبقى ببغداد فيعمل على قتله وإلا لاقى حتفه من جراء ذلك، وأما أن يخرج إلى أرض بعيدة وفي هذه الحالة يمده بما يحتاجه في سفره من مال وغيره ففضل زرياب ثاني الأمرين وسار إلى إفريقية حيث وصله كتاب من الحكم يستدعيه إلى قرطبة فقصدها وقبل وصوله علم بموت الحكم فتردد في الذهاب ثم دخلها في عهد عبد الرحمن الأوسط فأكرم مثواه وجعل له مائتي دينار شهريًا وألف دينار يوم عيد الفطر ومثلها في عيد الأضحى وخمسمائة في منتصف الصيف ومثلها في أول المحرم، والواقع أنه نال رضاء عبد الرحمن فكان نديمه يقص عليه الأخبار ويروي له عن عجائب البلدان، وغيَّر زرياب بعض عادات القوم فجعلهم يقصون شعرهم وكانوا يسدلونه على أكتافهم وحبب إليهم استعمال كوبات الزجاج بدل الكئوس الذهبية والفضية وأرشدهم إلى تغيير ملبسهم مع تغير الجو في الفصول فصارت له مكانة سامية وعُدَّ بين فلاسفة وشعراء وقواد وأمراء

وقته وكان زرياب فطنًا نبيهًا فلم يتدخل في السياسة أبدًا وتركها للسطانة طروب وأصلها من نافار (نبره) والخصي نصر، أما طروب فكانت امرأة ذات أنانية تميل إلى الذلل جشعة في حبها للمال ولم يكن في قلبها موضع للرحمة وكان نصيرها في أعمالها خصيًا شاركها في صفاتها. هو من أب إسباني وكان لا يتكلم العربية يمقت المسيحية والمسيحيين، وفيما أوردنا الكفاية لوصف الحالة في دار الملك في قرطبة.

(١) أثناء ذلك كانت البلاد تسير في طريق الفوضى وقد انتابتها الحروب الداخلية؛ فكانت الحرب قائمة لمدة سبع سنوات بين اليمنيين وبنى معد في مقاطعة مرسية.

(٢) ونشبت ثورة في بلاد ماردة وكان أهلها المسيحيون يتآمرون مع لويس الجميل على أحداث القلاقل والحروب.

(٣) خرجت طليطلة على الإمارة العربية مرة أخرى ودارت الحرب في الإقليم المجاور لها.

ثورة طليطلة

وثورة طليطلة التي نحن بصددها ترجع إلى أيام الحكم في دورها الأول والثاني وذلك أن أهلها هدموا الحصن الذي كان بناه عمروس فسار إليهم الحكم وأخذهم على غرة وأحرق بيوتهم؛ فلما كانت إمارة عبد الرحمن جددت طليطلة الثورة بزعامة هاشم وطرد جند عبد الرحمن الثاني من المدينة (٨٢٩) وأحرق بيوت ومزارع المسلمين بها.. وقوي أمر الثورة بانضمام الكثيرين إليها من الجهات المجاورة فأمر عبد الرحمن الثاني عامله

على الحدود محمد بن وسيم بإخضاعها فهزم وظل الثوار منتصرين سنة كاملة حتى أرسل المدد فهزم الثوار وقتل زعيمهم هاشم.

وفي عام ٨٣٤ ثارت طليطلة للمرة الرابعة فذهب إليها الأمير أمية فهزموه وأرادوا أن يقتفوا أثره وكان أعدلهم كمينا فخرج عليهم الكمين وكان يقوده ميسرة فلاقوا هزيمة منكرة غير أن هذه الضربات المتتالية لم تزحزح أهل طليطلة عن عزمهم على نيل استقلالهم فإذا كان عام ٨٣٧ حاولوا للمرة الأخيرة تحقيق أمانيهم فسار إليهم الوليد أخو الأمير وحاصرهم حتى كادوا يموتون جوعًا ولما لم يسلموا هاجمهم واستولى على مدينتهم عنوة ١٦ يناير سنة ٩٣٧ وأقام حصن عمروس ثانية وأخذ الرهائن إلى قرطبة وهكذا فقدت طليطلة استقلالا ظلت تحكم به مدة ثمان سنوات.

(٤) ثورة قرطبة، وهذه تتلخص فيما كان من أمر يولوجيوس وفلورا ومؤرخي منتصف القرن التاسع مصدر هذه الرواية.

أقام بقرطبة وفيما حولها كثير من المسيحيين المتعلمين وكانوا آمنين على حياتهم وأموالهم لهم حرية العبادة والتحق بعضهم بجيش العرب وشغل آخرون وظائف أخرى بقصر الإمارة فطاب لهم العيش وتعلموا العربية وأجادوها وحفظوا أشعار العرب وفلسفتهم ودرسوا كتبهم الدينية وشغلهم هذا عن لغة قومهم وعبادتهم غير أن فئة قليلة منهم ظلت نار الحقد والتعصب الديني تتأجج في صدورهم وعز عليهم أن يروا أجمل مدنهم في يد الإسلام، وكم تاقت نفوسهم إلى النزوح إلى الشمال حيث المسيحية في

الاستقلال وزادوا من كراهيتهم بعض الأوامر الاستثنائية التي كان يصدرها الأمير من وقت إلى آخر وشجعهم القسس على موقف العداء نحو الإسلام وكان يولوجيوس الدهم عداء (وتجدنا أبعد من أن ندس هذه الصفحات بنقل ما كتبه هذا القس عن النبي مُحَّد ﷺ) وجملة ما كان يتذمر منه المسيحيون سوء معاملة الرعاع لهم فتذكروا أيام كانت تدق النواقيس في الكنائس وكانت للمسيحية الكلمة الأولى.

ودفعهم موقفهم هذا من حيث تعصبهم الديني وتذكرهم مجد المسيحية في الأندلس قبل ظهور الإسلام بها واستهزاء العرب بهم إلى إحداث الفتن في الجهات الجبلية وتكوين عصابات تعكر صفو الأمن في داخل البلاد ولما لم يستطيعوا ذلك في قرطبة نفسها عمدوا إلى تضحية أنفسهم وسموا أنفسهم الشهداء متبعين خطوات المبشرين الأولين وما لقيه هؤلاء من جراء نشر المسيحية في بداية ظهورها، وقاد تلك الفئة شخصان يولوجيوس وألفارو، وثانيهما من أثرياء قرطبة وكانت تعيش بهذه المدينة فتاة تدعى فلورا وكانت لأب مسلم ومات في حداثة سنها فكلفتها أمها المسيحية وطبعًا اعتنقت المسيحية بحكم الوراثة عن أمها وتذرعت بها وتعصبت لها مما جعل أخاها المسلم يتدخل في أمرها ويمنعها عن الذهاب إلى الكنائس ورغم هذه الرقابة كانت تذهب سرًا إليها وصارت على رابطة دينية وطيدة بالقس يولوجيوس ومما ثبت في نفسها أن المسيح لا يرضى عنها ما دامت تخفي حقيقة دينها فعزمت على إعلان مسيحيتها فهربت مع أخت لها واختفت بين جماعة من المسيحيين، ثم اضطرت للعودة إلى بيت أخيها وصارحته أنه لن يستطبع تغيير عقيدتها وانتهي به الأمر أن

ساقها القاضي فأنكرت أنها يوما ما كانت مسلمة وأعلنت أنها لا تعرف غير المسيحية دينا ولا تعترف بغير المسيح إلها فأمر القاضي بجلدها رحمة بها وشفقة منه عليها علها تثوب إلى رشدها وقبل أن تبرأ من جروحها هربت ثانية من بيت أخيها وآواها مسيحي صديق لها وأصبحت على اتصال بيولوجيوس وكان يقدسها لعلو همتها وذكائها وريعان شبابها وندرة جمالها، ثم خرجت من قرطبة وتوارت عن الأنظار. وفي غيابها، وفي عام ٨٥٠ تجرأ قس يدعى برفكتوس على الطعن في الدين الإسلامي وفي نبي المسلمين جهارًا فحوكم أمام القاضي فأمر بإعدامه. وحدد نصر يوم الإعدام واختار لذلك أول أيام عيد الفطر وقبيل غروب الشمس نفذ حكم الإعدام ولاقى المجرم حتفه بكل ثبات بعد أن أكثر من اللعنات على الإسلام والمسلمين عامة ونبيهم خاصة وعد المسيحيون قتيلهم بين القديسين ومما زاد من حسن ظنهم بقديسهم أن غرق اثنان من المسلمين يوم الإعدام وأن نصرًا لاقى منيته ولم تمض سنة على ذلك الحادث.

ولهذا الظرف نوجز كيف كانت نهاية نصر فنقول: أنها كانت جزاء خيانته لسيده، وذلك أن طروب أوعزت إليه أن يساعدها على إخلاء عرش الأندلس لابنها عبد الله بقتل منافسة أخيه لأبيه مُحَمَّد وبقتل زوجها نفسه فحصل نصر على سم زعاف وقدمه لسيده على شكل دواء نافع ولكن شاءت الظروف والأقدار أن يعلم بأمر هذا السم فلما قدم إليه أظهر خوفه ومنعا للريبة اضطر نصر أن يشربه فشربه ومات لساعته.

وحدث بعد ذلك بقليل أن أتهم تاجر مسيحي يدعى "حنا" بالتعريض بالنبي مُحَمَّد وذلك أنه كان دائمًا يقسم بالنبي وحياته كذبًا بأنه صادق فيما

يقول عن جودة بضاعته واعتدال أثمانها فخاطبه القوم في ذلك فقال (لعنة الله على كل من يذكر اسم مُحَمَّد) وكان في قوله الأخير الكفاية فأمر القاضي بجلده أربعمائة جلدة وعلى أثر أنفسهم للسياف ولم يجدوا لذلك طريقة سوى لعنهم النبي وسبه علانية وكان أسبقهم إلى ذلك قس يدعى "إسحاق" وكان في بداية أمره ناموسا لعبد الرحمن الثاني ثم دخل خدمة الكنيسة حيث تشعبت نفسه بنظرية وجوب الاستشهاد فذهب يوما من تلقاء نفسه إلى القاضي وقال "أريد أن أعتنق الإسلام فأرشدني إلى السبيل" فسر القاضي وبدأ يحدثه عن الإسلام، وهنا قاطعه القس قائلا "لقد كذب نبيكم وخدعكم بكذبه وافترائه" ثم لعنه وقال "لعلك ثمل من كثرة الشراب أو بك مس في عقلك فتبين ما تقول" فأجاب القس "إني أملك قواي العقلية تماما ولم أذق الشراب في يومي وإن إخلاصي لديني دفعني إلى ما كان مني. فأمر القاضي بسجنه وهو يعتقد أن الرجل به جنون ولكن عبد الرحمن وقد هاله ما سمع أمر بقتله وصلبه ثم إحراقه وفي ٣ يوليو سنة ٨٥١ نفذ حكم الإعدام وضم المسيحيون اسمه إلى أسماء القديسين.

وبعد مقتل إسحاق بيومين تقدم سانكو وسب النبي فضرب عنقه وفي يوم الأحد ٧ يونيو نال ستة منهم نفس الجزاء، مما زاد من إقدامهم فتطوعوا بقطع رءوسهم وبلغ عدد شهدائهم أحد عشر شهيدًا في أقل من شهرين، ويجدر بنا أن نبين هنا أن أغلبية المسيحيين وقد خلت نفوسهم من ذلك التعصب الشديد أنكروا على إخوانهم ما كان منهم وعدوا عملهم جنونا أصابهم وأدى بهم إلى الانتحار. وحاجوهم بأيات من أنجيلهم تبين لهم

جهلهم وقد وافق بعض قسسهم على هذه الأراء وأيدوها وعبثًا حاول يولوجيوس إثارة نفوسهم ثانية.

أما الحكومة الإسلامية فقد وجدت نفسها أمام مسألة خطيرة ففكرت في حل يضع حدًا لهذه المذابح من جهة ومنع أولئك القوم من طعنهم في الدين الإسلامي من جهة أخرى فدعت ذوي الكلمة والنفوذ من المسيحيين إلى عقد مجمع يقرر بطلان طريقة الاستشهاد وناب عن عبد الرحمن في حضور هذا الاجتماع رسول مسيحي من قبله واسمه جوميز بن أنطونيان وهذا شرح للمجلس سوء عاقبة أعمال الشهداء وأنها قد تؤدي إلى استئصال شأفة المسيحيين في البلاد وسأل المجلس أن يصدر نداء يوجهه إلى العالم المسيحي بالأندلس يبين خطأ نظرية الاستشهاد وأن يجيز للأساقفة والقسس سجن من تظهر عليهم هذه النزعات، وأصدر قرار المجلس بذلك فلم يأبه يولوجيوس وأتباعه بهذا النداء فطوردوا من مكان إلى مكان وأخيرًا قبض عليهم وسجنوا وفي السجن قابل يولوجيوس فلورا مرة أخرى وفي ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١م أعدمت تلك الفتاة وزميلة لها تدعى ماري.

عقب ذلك عفا عبد الرحمن عن يولوجيوس ومن معه غير أن هذا العفو لم يضع حدًا لتلك الحالة ومات عبد الرحمن في سبتمبر سنة ٨٥٢م.

أثر حكم عبد الرحمن الثاني: كان له أثر كبير في ترقية الحركة الفكرية وذلك بتشجيع العلماء وميله إلى الأدباء فكان بلاطه مزدحمًا برجال العلم والأدب والدين والفلسفة والشعراء وبسبب وفرة المال في خزانته عمد إلى

الإصلاحات الداخلية فبنى القصور وأقام الجسور وزاد في جامع قرطبة ومن شعره:

ولـــقد تعـــارض أوجـــه لأوامــر فيقودهــا التوفيــق نحــو صوابهــا
والشـيخ أن يحنــو النهــى بتجــاوب فشــباب رأي القــوم عنــد شــبابها

وكان عبد الرحمن بإكرامه زريابًا أكبر ناصر لفن الغناء.

محمد بن عبد الرحمن الثاني

٢٣٨-٢٧٣هـ "٨٥٢-٨٨٦م"

مات أبوه عبد الرحمن فجأة ولم يوص بالإمارة من بعده لأحد ولديه: عبد الله ابن الملكة طروب، ومُحَمَّد؛ فأخفي أمر وفاة الأمير واجتمع في قصر الخلافة مجلس كان الرأي فيه لأبي المفرح أحد الخصيان وقرّ رأيهم على إسناد الإمارة لمحمد لما وصف به من كرم الأخلاق وحسن السيرة، وسار سعدون يحمل خاتم الإمارة إلى مُحَمَّد بقصره وأعلمه بوفاة أبيه فذهب لوقته إلى قصر والده وأخذ البيعة لنفسه على من حضر. وعلم أهل قرطبة بما كان في صبيحة اليوم التالي.

اعتلى مُحَمَّد عرش الإمارة وغيَّر سيرته الأولى؛ فقد طاب له أن يمضي سحابة يومه في قصر الرصافة ويكثر من الشراب وأظهر أنانية وضعف عقل في تصرفاته وكان أول أعماله أن أنقص مرتبات الموظفين وقلل أعطية الجند ثم حرم البلاد من خدمات الاكتفاء من وزراء أبيه وعين أحداثًا تعوزهم التجارب على شريطة أن يكون له نصيب من رواتبهم ودخلهم وكان حريصًا على مال الدولة ولم يسمح لأحد بمشاركته في تدبيرها فكان

يحاسب كاتب المال على درهم نقص من دخل قدره مائة ألف دينار.

لموقفه هذا كرهه القوم عامة عدا طائفة الفقهاء، وذلك لأنهم رأوه شديد الغيرة على الدين الإسلامي يستطيع كبح جماح المسيحيين المتعصبين، وكان مُحَمَّد من هذه الوجهة موضع ظنهم. لما شعر بتأييد هذه الطائفة له طرد كافة الموظفين والجند المسيحيين ما عدا جوميز. ثم خالف سياسة آبائه في نظرية التسامح الديني وصمم على إقامة الإسلام وتأييده بكل ما استطاع فأمر بهدم ما كان قد بني من الكنائس وما كان باقيًا منها ومن ثم أمر بقتل من لا يعتنق الإسلام منهم فدخله الكثيرون خوفا.

ولما مات عبد الله بن أمية المتصرف ببيت المال اعتنق جوميز الإسلام حتى يحصل على هذا المنصب الرفيع وقد كان فسماه الفقهاء "يمامة الجامع" وسمى جوميز ابنة "عمر".

يولوجيوس في طليطلة – في هذا الظرف اطلع يولوجيوس مسيحي طليطلة على ما نزل بأخوانهم بقرطبة فثار القوم واختاروا أحدهم سندولا زعيمًا وقبضوا على حاكم المدينة العربي وأجبروا الحامية على مغادرة المدينة وأعلنوا الحرب على الإمارة العربية وهزموا الجيوش التي أرسلت إليهم "٨٥٣" وساروا إلى قرطبة فخرج إليهم مُحَمَّد بنفسه في جيش عظيم واستنجد سندولا بأردونو الأول ملك ليون فأمده بجيش.

ولما تقابل الطرفان تكبَّد المسيحيون خسائر فادحة، ثم رمى مُحَمَّد أسوار طليطلة بقنابل مدافعه. ولما عاد مُحَمَّد منتصرًا علق رؤس القتلى على أسوار قرطبة وأرسل بعضها إلى إفريقيا. وكان يأمر قواده وابنه المنذر من

وقت لآخر أن يهاجموا طليطلة ويذلوا أهلها ثم زاد من قيمة الجزية. ورغم ذلك لم تنقطع جماعة الشهداء عن تقديم رقابهم للسيف، واختارت طليطلة يولوجيوس زعيمًا لحركتها الدينية، وشجعهم على موقفهم هذا قسيسان من الفرنجة وسار إليهم مُحَمَّد مرة أخرى وضربهم ضربة ساحقة وهدم مبانيهم وأغرق أهلها في مياه التاجه وترك المدينة أطلالا وعاد إلى قرطبة فوجد الفرصة مكنته من ألد أعداء المسلمين وزعيم طائفة الشهداء ونعني به يولوجيوس.

وذلك أنه أخفى بمنزله فتاة تدعى "ليوكريتا" وكانت من أبوين مسلمين واعتنقت المسيحية فأمر مُحَمَّد بمهاجمة بيت القس وكان في داخله فقبض عليه وعلى الفتاة. ولقد تأكد أثناء محاكمته بعطف المسلمين عليه وعلى زملائه. ولكن مركزه بين قومه لم يجعل له فرصة للخروج على مبدأ كثيرًا ما حض عليه. وضرب رأسه في ١١ مارس سنة ٨٠٩ أعدمت ليوكريتا بعده بأربعة أيام وضم أسماهما إلى أسماء القديسين. ومن ثم أخذت حركة الاستشهاد في الضعف ولم يمض على ذلك كثير حتى أظهر المسيحيون غضبهم بطريقة أخرى في ظرف ساعدهم على ذلك.

ثورة ريجيو الجبلية واستقلال بعض الإمارات

ريجيو أوريا إقليم جبلي يبعد قليلا عن الساحل الجنوبي وعاصمته أرقيدونة وسكانه كلهم من الإسبان واعتنق الإسلام أكثرهم. وكانوا ذوي جرأة وإقدام وقوة ومهنتهم قطع الطرق والتهريب ورغمًا عن اعتناق أكثريتهم الإسلام كانوا دائمًا يعدون العرب أعداءهم مغتصبين لحريتهم

وبلادهم فحذوا حذوا طليطلة في ثورتها وكان قد آل أمر طليطلة بعد ما أصابها أن نالت استقلالا داخليًا نظير دفع الجزية السنوية، وكذلك وصلت أرجونة إلى تلك النتيجة وأصبح أميرها موسى الثاني في قوة جعلت له السلطة على الأقاليم الشمالية كلها واتخذ سرقسطة مقرًا لحكومته القوية. وعبثًا حاول مُحَمَّد إخضاع أرجونة ويرجع ذلك إلى مساعدة ألفونسو الثالث للثوار، ثم تمكنت ماردة من إحراز هذا الغرض نفسه بزعامة ابن مروان.

في هذا الموقف أرسل مُحَمَّد جيوشه بقيادة ابنه المنذر ووزيره هاشم لإخضاع الثوار فقابلهم سعدون قائد ابن مروان في جيش من الفرنجة وهزم جيش العرب هزيمة تامة وقاد هاشمًا أسيرًا وأرسله ابن مروان إلى حليفه ألفونسو وظل في الأسر سنين ثم عاد إلى قرطبة، أما ابن مروان فقد قبل الصلح على ألا يتعرض له مُحَمَّد في أعماله ولا يفرض عليه جزية ولا يطلب منه مساعدة.

النتيجة: ظهرت الحكومة بمظهر الضعف وتشجيع الثوار فسقطت مهابتها فقامت ريجيو بدورها تطلب استقلال (٨٧٩) فاهتم مُحَمَّد بأمرها وأرسل جيشًا استطاع إخماد الثورة ثم شيد الحصون وفشل أهل ريجيو في ثورتهم لعدم وجود قائد قادر تتوفر فيه شروط الزعامة.

وأخيرًا حوالي عام ٨٨٤ وجد أهل الجنوب زعيمًا نشطًا شجاعًا في شخص عمر بن حفص (حفصون) واستطاع أن يكتسب طاعة القوم ومحبتهم له فنظم لهم أحوال معيشتهم وجمع شتاتهم ونشر الأمن في ربوع هذه الأقاليم الجبلية وحكمها دون أن يتدخل أمير الأندلس في أمره إلى

يونيو سنة ٨٨٦ وفي هذه السنة سار المنذر لإخضاعه وأنصاره وحاصرهم شهرين وأصيب عمر ببعض جروح وفقد إحدى يديه.

إذ ذاك جاء رسول من قرطبة يحمل إلى المنذر خبرة وفاة والده (٤ أغسطس ٨٨٦) فاضطر إلى رفع الحصار وسار توا إلى العاصمة وكان في ذلك فرصة لعمر تخلص بها من مأزقه الحرج وما لبث أن أقام نفسه ملكًا فعليًا على جنوب الأندلس. ولقد ساء المنذر أن تكون هذه حالة بلاده فعاد في (٢٧٣-٢٧٥) ثانية على عجل إلى الجنوب واشتبك في معارك دموية مع الثائرين وقد كان النصر متبادلا بينهما، وفي بداية ٨٨٨ هدم حصونهم ثم حاصر عيشون في أرقيدونة، ولما وقع هذا الثائر في يده قتله وصلبه ثم سلمت المدينة فقتل وجوه قومها ولم يلبث أن قصد جبل بوباستر حيث عمر بن حفص واستطاع الثائر أن يفلت من يد المنذر بحيلة احتالها وذلك أنه تقدم بطلب الصلح والخضوع فقبل منه المنذر ما طلب وما كاد يرفع الحصار ويسير في طريق قرطبة حتى عاد عمر إلى ما كان عليه فعزم المنذر على العودة إليه ولكن وافته منيته مسمومًا بإيعاز من أخيه عبد الله وكان يطمع في الإمارة (٢٩ يونيه سنة ٨٨٨) ولما علم بخبر الوفاة وهو في قرطبة أخذ البيعة لنفسه ثم سار إلى حيث كان أخوه فوجد الجند قد تشتت شملهم لشدة ما لاقوه من القتال ونقل جثة أخيه إلى قرطبة وعند وصوله لم يجد حوله من جيش أخيه سوى أربعين فارسًا.

عبد الله بن محمد

(٢٧٥-٣٠٠هـ - ٨٨٨-٩١٢م)

صارت إليه الإمارة بعد مقتل أخيه المنذر ولتوه أدرك خطوة المنصب الذي من أجله ارتكب جريمة قتل أخيه:

(١) قامت العصبيات بين العرب وهددت كيان دولته بالسقوط.

(٢) كان ابن حفصون وأمثاله من الثوار بلغوا غاية المناعة.

(٣) انتهز أمراء العرب من هذه الحالة فرصة ينفصلون بها عن الإمارة فرأى أن يصالح الإسبان فتقرب إلى ابن مروان واعترف بمقاطعة ريجيو إلى ابن حفصون على أن يحتفظ الأخير بولائه له، ونجحت تلك الخطة لمدة يسيرة وبعدها عاد ابن حفصون إلى عدائه القديم وطرد من كان من أتباع عبد الله ببلاده وواصل جنده نهب القرى حتى أسوار قرطبة نفسها ونتج عن هذه الخطة - فضلا عن فشلها - أن زادت من كراهة العرب لمن تقرب إلى الإسبان دونهم.

الأحوال الداخلية

العرب والإسبان في ألفيرا (البيرة)

اختار العرب يحيى من بني قيس زعيمًا لهم وكان أول أمر هذا الاتحاد العربي أن اشتبكوا في القتال مع جماعات الإسبان وغلبوا على أمرهم في قراراتهم المتعددة فاختار مركزًا حصينًا شمالي غرناطة فهاجمهم الإسبان (مسيحيون ومسلمون) واستولوا على حصنهم فصالحهم يحيى ثم غدوا به

فقتلوه وبعض أتباعه ومن ثم أصبح العرب فريسة لأعدائهم الإسبان ومما زاد من سوء حالتهم أن تجددت في هذه الظروف الحرجة حزازات العصبية بين بني معد واليمنيين.

وأخيرًا – وقد أدركا عاقبة الخلاف – تصالحا وجعلا الزعامة لقيسي يدعى سوارًا وكان إنقاذ العرب على يديه. نزع هذا الرجل كل رحمة من قلبه وسار بمن اجتمع حوله واسترجع الحصن الذي كان للعرب شمالي غرناطة وقتل حاميته عن آخرهم (ستة آلاف) ثم أغار على القرى وخربها وذبح أهلها فاستنجد الإسبان بجاد أمير الفيرا (البيره) فخرج لمساعدتهم في جيشه ودارت معركة دموية انتصر فيها سوار وقتل من أعدائه سبعة آلاف، وتعرف هذه المعركة بمعركة جاد، وأصبح لسوار بعد هذا النصر مركز سام في الأندلس وحالفه أهل ريجيو وغيرها مما جعل أمير الأندلس عبد الله بن مُحَمَّد يتقرب إليه ويتخذه نصيرًا، وعندئذ فكر سوار في أمر ابن حفصون وأغار على بلاده وتقاتل الطرفان قتالا طويلا انتهى بانتصار سوار وقتله من أعدائه اثني عشر ألفًا في معركة سميت بمعركة المدينة وقصيدة سعيد بن جودي في وصفها باقية. وما لبث أن انتصر سوار على ابن حفصون مرة أخرى وعند عودته من ميدان القتال اعترضه كمين من الأعداء وقتلوه وحملوا جثته إلى الفيرا فعم الفرح أهلها وانتقم نسوة المدينة لأنفسهم بتقطيع جثته وأكلها (٨٩٠).

اختار العرب بعده سعيد بن جودي – شاعر قومه وفارسهم – وكان ذا حسب رفيع مثال الخلق العظيم واعترف به الأمير زعيمًا على العرب وأمكنه أن يدفع عن قومه شر الإسبان وقال مؤرخو العرب أنه دخل ألفيرا

وأنشده شاعرها الأبلي (عبد الرحمن بن أحمد) قصيدة يمدحه فيها فأحسن إليه، وما كاد الشاعر ينصرف حتى أعاد أحد الحاضرين سيرة مقتل يحيى فأمر سعيد أحد أقارب القتيل أن يتبعه ويثأر لنفسه.

(٢) أهل إشبيلية: معظمهم إسبان من نسل القوط والرومان واعتنقوا الإسلام في عهد عبد الرحمن الأوسط واشتغلوا بالزراعة والتجارة فتقدمت أحوالهم غير أنهم احتفظوا بعادات وأسماء بيوتاتهم القديمة كبني أنجيلينو وبني ساباريكو وغيرهم، وكانوا يبجلون أمير البلاد ويعدون محافظته على الأمن سبب رخائهم وفلاحهم ولكنهم كانوا يخافون عرب الوديان ويكرهونهم لكثرة ما نالهم من أذى على أيديهم.

وكان أهم بيوتات إشبيلية بيتين: بني حجاج، وبني خلدون، والبيت الأول من نسل عمير اللخمي وزوجته سارا حفيدة غيطسة وفي زمن عبد الله ابن مُحَمَّد كان كريب زعيم بني خلدون وكان يكره الإمارة العربية وود لو يستقل في إشبيلية فرأى أن يقود القوم إلى ثورة فحدثهم عن الحرية فقالوا أنهم يفضلون الإمارة الإسلامية عن الفوضى ولما لم يفلح عرض رأيه على عرب البادية وعرب المغرب في قرمونة وبني حجاج ووعدهم غنائم لا تحصى في إشبيلية إذا تم له فصلها فوافقوه وأغاروا على إشبيلية وقتلوا ونهبوا وسبوا ولم تستطع الحامية قهرهم وعاد عرب المغرب محملين بالأسلاب إلى ماردة فرآهم ابن مروان وعلم بما كان فسار في قومه إلى "إشبيلية" ودخلها ثم عاد بعد أن ظفر بما أراد وعندئذ رفع أهل إشبيلية أمرهم إلى عبد الله فغير حاكمها ولكن ذلك لم يجد نفعًا وظلت الفوضى تسود في "إشبيلية" حتى قام "مُحَمَّد بن غالب" من أهلها وبنى بأمر الأمير

حصنًا وجمع فيه الرجال وأعاد الأمن إلى نصابه، غير أنه وشي به لدى الأمير فأرسل إليه من خدعه وقبض عليه وقتله.

أدى ذلك إلى حرب طاحنة هلك فيها خلق كثير حتى سالت دماؤهم في الطريق وامتلأ الوادي الكبير بجثثهم، وهكذا انتهت أطماع بعض أهل "إشبيلية" والسعي وراء المطامع الذاتية ولقد فخر شعراء أهل اليمن بهذا الانتصار ومن ثم أصبحت "إشبيلية" مستقلة عن الإمارة العربية وطلب أهلها إلى أمية حاكمها من قبل عبد الله أن يخرج منها فقاتلهم حتى قتل وأصبح الأمر لإبراهيم بن الحجاج وكريب سنة ٨٩١.

(٣) كذلك توصل البربر إلى اقتطاع أجزاء من الأندلس لأنفسهم فيما حول قرطبة وماردة وغيرهما، وكانت أسرة ذي النون وزعيمها موسى أشد البربر خطرًا على الإمارة العربية فقد استطاع موسى وبنوه يحيى وفتح ومطارف أن يعيثوا في الأرض فسادًا وخاصة ببلاد البرتغال.

(٤) في جنوب البرتغال إقليم يعرف بالجرف وكان حاكمه إذ ذاك بكر بن يحيى من أصل إسباني وأقام بإمارته حكومة مستقلة تعترف بالولاء لأمير قرطبة.

(٥) عاد ابن حفصون إلى عدائه وانضم إليه سيرفاندو أحد عمال عبد الله بن مُحَمَّد وأكثر الأخير من غاراته على القرى المحيطة بقرطبة وقتل ونهب وأحرق وأصبحت الأندلس جنوبي الوادي الكبير في قبضة ابن حفصون وبدأ يفكر في الاستيلاء على قرطبة نفسها ليكون أميرًا على أندالوسيا كلها وكان يوقن بنصرة الإسبان له ولكي يجعل العرب في

الأندلس يقبلون هذا التغيير الفجائي رأى أن ينال أمرًا بولايته الأندلس من قبل الخليفة العباسي ووسط الأغلب حاكم إفريقيا في ذلك وهذا وعده المساعدة.

والآن ننظر فيما آلت إليه قرطبة نفسها – كانت في أسوأ حالة يحاصرها أعداؤها من وقت لآخر ويزعج نساءها وقتلوا أطفالها – وسقط نفوذ الأمير بها كله وضاعت مهابته وثار عليه جنده يطلبون ما تأخر من أعطيتهم، وكانت الخزانة خاوية لعدم استطاعة الإمارة جمع الخراج وامتنع الباعة عن عرض المأكولات في الأسواق وارتفعت أثمانها، وتحقق القوم من ضياع ملك ابن مُحَمَّد فقد رأى ثمرة ما ارتكبه يداه من قتل أخيه وعبثا حاول أن يقرب منه ابن حفصون وهذا كانت آماله أكبر من أن تؤثر فيها كلمات استعطاف. ولما يئس من أمره سجن نفسه في صومعة مع زاهد وأخذ يجهد قريحته في كتابة الأشعار وظل كذلك حتى إذا كان يوم خطر له أن يخرج لملاقاة أعدائه إما إلى الصدر وإما إلى القبر وصمم على ذلك.

نهضة قرطبة

بدأ القتال بالقرب من قرطبة بمعركة صغيرة انتصر فيها عبد الله وقاتل لنفسه بين الصفوف وفي يوم الخميس ١٥ إبريل سنة ٨٩١ نشبت معركة پولي، وحمي وطيسها في يوم الجمعة وتراجع عبد الله بن أمية أحد قواد عبد الله وكادت تدور الدائرة عليه. وإذ ذاك تقدم قائد آخر يدعى عبيد الله إلى الأمير وقال له: "إلى أين تريد الرجوع؟.. تقدم واجعل أمرك بين يدي الله وإن ينصركم الله فلا غالب لكم" واشتبك الفريقان ثانية في معركة دامية

كان النصر فيها أخيرًا لعبد الله وفر ابن حفصون مع من بقي حوله إلى حصن بوباسترو.

أما عبد الله فاستولى على الأسلاب والغنائم ثم جيء إليه بالأسرى فعفا عن المسلمين منهم وعرض الإسلام على المسيحيين وكانوا ألفا في عددهم فرفضوا اعتناقه فأمر بضرب رءوسهم ثم أخذ يخضع الحصون والمدن في طريقه إلى معقل ابن حفصون وقبل أن يصله تذمر الجند مما لاقوه من التعب فعاد إلى أرقيدونة وفي طريقه إليها هاجمه ابن حفصون ولكنه هزم ثم دخل عبد الله غرناطة وأخذ منها رهائن ثم سار إلى قرطبة.

كان أمد الهدنة قصيرًا وعاد بن حفصون إلى القتال واستولى على أرقيدونة (٨٩٢) وجاءه رسل من غرطانة بخبر خروجها على عبد الله وطلبوا مساعدته وتم له بحيلة احتالها الاستيلاء عليها وقتل حاكمها ثم هزم بن جودي وأتباعه، وهكذا في سنة واحدة استرجع ابن حفصون ما كان قد فقده واحتفظ به مدة خمس سنوات ما عدا ألفيرا فقد استطاع عبد الله استرجاعها في ٨٩٣ بفضل الموالين له بها، ومن ثم صار عبد الله يرسل جيوشه سنويًا إلى الخارجين عليه وأجبرهم على دفع الجزية ونجح بذلك في ملء خزانته وخاصة ما أخذه من إشبيلية بحد السيف مما جعل إبراهيم بن الحجاج أميرها يستنجد بابن حفصون، ويجدر بنا أن نشير هنا إلى ما كان من أمر هذا الشقي بعد ما مر بنا من الحوادث فنقول إنه تجرأ وارتد إلى المسيحية وسمى نفسه صمويل، وكان لتلك الردة أثرها فتفرق أصحابه وأعوانه من حوله ولكن عندما حالفه إبراهيم بن الحجاج عاد إلى قوته الأولى وفي ٩٠٢ سار جيشاهما إلى حدود قرطبة ودار القتال ليلا وانتصر

بن أبي عبده قائد عبد الله ورد أعداءه خاسرين.

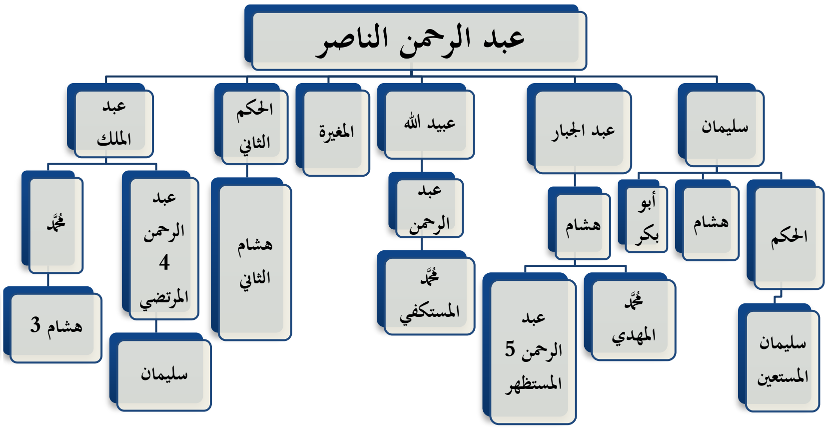
أما رهائن ابن حفصون الثلاثة فقتلوا ثم عفا عن عبد الرحمن بن إبراهيم بن الحجاج وكان لهذا العفو أثره: عاد إبراهيم إلى مصادقة عبد الله ودفع الجزية بانتظام وأرسل الجند لمساعدته سنويًا غير أنه حكم إشبيلية حكومة مستقلة داخليًا موجهًا عنايته إلى حفظ الأمن وترويج التجارة ونشر العلم والأدب وأحاط نفسه بحرس قوي وأحضر العلماء من جزيرة العرب والمغنيات الغانيات من بغداد وقصده شعراء قرطبة وأقاموا بين حاشيته.

وعلى أثر ما كان من صلح بين عبد الله وبين إبراهيم بن الحجاج خضع الغرب بأكمله لسلطان قرطبة وصارت الولايات تدفع خراجها من تلقاء نفسها وفيما بين ٩٠٣ – ٩١٠ أخضع عبد الله الجنوب، وفي الشمال قدم لوب بن مُحَمَّد أمير سرقسطة خضوعه لعبد الله وأخذ يجدّ في مقاتلة ملك ليون، وكونت إقليم برشلونة، وملك نافارا.. ولما مات لوب خلفه أخوه عبد الله وكان على أحسن ولاء للإمارة العربية.

ومما حدث في (٨٨٩) أن خرج جماعة من العرب مدفوعين بعامل الجرأة والإقدام ودخلوا جنوب فرنسا وفتحوا إقليم بروفنس ودوفيني واحتلوا مرسيليا ونيس وغيرهما وفي ٩٠٦ عبروا جبال سني واحتلوا بيدمونت وليغوريا وجزءًا من سويسرا حتى بحيرة كنستانس حيث أقاموا مستعمرة لهم. ومات عبد الله بن مُحَمَّد في ربيع الأول عام ٣٠٠ (١٥ أكتوبر ٩١٢) وقد بلغ من العمر ٦٨ سنة.

عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله

(٩١٢ – ٩٦١)م (٣٠٠ – ٣٥٠)هـ



هو عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبد الله وجعل له جده الإمارة من بعده فوليها دون أن يعارضه أحد أعمامه. ولما ولي الإمارة جعل سياسته من بداية أمره مقامة على الصراحة والجرأة والثبات فأرسل إلى أمراء الولايات الخارجية على قرطبة أن يسلم أمراؤها حصونهم وبلدانهم ووعد من أسرع إلى الطاعة العفو وتوعد من يتردد مر الانتقام. وكان يخلط في سياسته بين الشدة واللين مما جعل الأمراء يصدعون لأمره ومما ساعده على ذلك أن الأندلس كانت قد خلت من سعيد بن جودي وكريب وإبراهيم بن الحجاج وأمثالهم ممن ماتوا ولم تجد الأندلس غيرهم على مقدرتهم وكفاياتهم وكذلك الإسبان أنفسهم وقد أصبحوا على ضعف وذهبت ريحهم فأخلدوا إلى السكينة وقد انتشر الأمن في

ربوع البلاد وهذا ما كان يبتغيه أكثرهم.

النتيجة: سلمت غرناطة والفيرا – سقطت جانة بسهولة – قبلت أرقيدونة دفع الجزية – لم يجد ابن حفصون من يتدفق إلى صفوفه من المتطوعين فاستأجر جندًا مرتزقة من بربر طنجة – خلت حروب هذا العصر من شدة الحروب الأولى، ولا شك في أن ما وصلت إليه الحالة الخلقية بين أمراء قشتاله وأهلها المسيحيين من سوء وانحطاط واشتغالهم باللصوصية ونهب المسافرين جعلت القوم يكرهونهم وولوا وجوههم نحو أمير البلاد ليخلصهم من أذى أولئك القوم. كما أن من اعتنق الإسلام من الإسبان أخذ يدافع عن دينه الجديد بكل قوته مما جعل للحرب صبغة دينية. وخلاصة القول فرح أهل الأندلس عامة (ما عدا المسيحيين) لزوال ملك عبد الله وارتقاء عبد الرحمن عرش البلاد.

أعمال عبد الرحمن الثالث: خفض الضرائب فأحبه الناس ثم قاد جنده بنفسه ودخل قشتاله وأخضع سعيد بن حذيل وإذ ذاك طلب سبعة من أمراء قشتالة الأمان فقبل واعتقلهم وأرسلهم إلى قرطبة وأفراد أسرتهم وأقام حكامًا من بين رجاله على حصونهم ثم قصد معاقل ابن حفصون فدخلها وانتصر أحد قواد عبد الرحمن على ابن حفصون بالقرب من ألفيرا. وكان في كل معاركه يأمر بضرب أعناق الأسرى المسيحيين. وهكذا في مدة ثلاثة أشهر أخضع تلك الأقاليم المسيحية الثائرة وخلص الناس من شرهم، وعقب تلك الحوادث فكر عبد الرحمن في أمر إشبيلية وكان حدث بين قومها شقاق حول إمارتها بعد وفاة إبراهيم بن الحجاج ولما لم يعترف عبد الرحمن الناصر بإمارة مُحَمَّد بن إبراهيم في إشبيلية وأرسل الجند لإخضاعها ذهب مُحَمَّد بنفسه إلى

قرطبة وقدم طاعته وقد ظن ابن حفصون أن في أزمة إشبيلية فرصة تمكنه من مقابلة عبد الرحمن فجاء بجنده ولكنه هزم شر هزيمة وهرب إلى مأواه حصن بوباسترو.

لم يتمهل عبد الرحمن في أمر ابن حفصون فسار إليه وقابله في معارك حامية كان النصر فيها لعبد الرحمن وتمكنت سفن العرب من مصادرة سفن تحمل مؤنًا لابن حفصون. ولما وجد هذا نفسه مغلوبًا على أمره في كل مواقفه فر إلى إفريقية عله يستطيع أن يجد أنصارًا ويجمع جيشًا من أهلها وعاد عبد الرحمن منتصرًا. وفي طريقه مر بالجزيزة الخضراء ثم شدونة ودخل قرمونة (يونيه ٩١٤) وفي تلك السنة حل بالأندلس قحط شديد ومات بسببه الآلاف من أهل قرطبة واشتغل من نجا من الموت بدفن الموتى وأغار القوم من جوعهم في مختلف الجهات على ما زرع من حقول. فصرف عبد الرحمن جهده في تخفيف آلام الناس وقعد عن القتال. وفي سنة ٩١٧ مات ابن حفصون بعد أن قاد الثوار وأرهب الأمراء ثلاثين عامًا أراد في خلالها تحرير البلاد من العرب.

عبد الرحمن الناصر سيد البلاد

مات ابن حفصون وترك أربعة ذكور: عبد الرحمن وجعفر وسليمان وحفص وابنة واحدة أرجنتينا، أما أولهم فدخل في خدمة عبد الرحمن وأقام بقرطبة حتى مماته والثلاثة الآخرون قاموا الواحد بعد الآخر بقيادة المسيحيين فلم يفلحوا وسقط حصن بوباسترو ومعقلهم المنيع في يناير سنة ٩٢٨ وانضم حفص إلى جيش عبد الرحمن وكانت نهاية الفتاة الإعدام جزاء تمسكها بالمسيحية رغم كونها ولدت أيام كان أبوها لا يزال مسلمًا، ولما زار عبد

الرحمن الناصر حصن بوباستر وأغراه جماعة الفقهاء على نبش قبري ابن حفصون وابنه جعفر وأرسل جثتيهما إلى قرطبة حيث صلبًا من ثم سهل على عبد الرحمن إخضاع من بقي من أمراء المسيحيين على عدائهم وهدم حصونهم واعتقل رؤساءهم وأرسلهم إلى قرطبة، وكذلك فعل ببني المهلب من البربر، وفي سنة ٩٢٤ سلمت بلنسية وفي (٩٢٦) أخضع عبد الرحمن أتباع ذي النون. ونكتفي الآن بذكر أسماء الولايات التي أخضعت بعد ما تقدم وهي: تدمير – ماردة – باغة – الجرف – بداجوز (معقل بن مروان) وكانت طليطلة آخرها وسلمت في عام ٩٣٢م بعد حصار عامين – وقد تم له إخضاع الأندلس وساوى بين العرب والإسبان عمل على مزج الفريقين ببعضهما ليكونا شعبًا واحدًا. وقد رضي الإسبان بتلك الخطة وارتاحوا لها.

كان يهدد الأندلس إذ ذاك دولتان: مملكة ليون المسيحية في شمال الأندلس، والفاطميون في إفريقيا.

دخل عبد الله أحد دعاة مذهب الشيعة الإسماعيلية بلاد المغرب في عهد الإمبراطور قسطنطين، واستطاع أن يمهد الأمر لزعيم هذا المذهب سعيد بن عبد الله القداح الذي سمى نفسه فيما بعد بعبيد الله واستطاع عبيد الله هذا أن يجمع البربر حوله والتغلب على ملك الأغالبة وبسط نفوذه في إفريقية، ولقد مر بنا ما كان بين الأغالبة وبين ابن حفصون من مراسلات، واتفق أن علم عبيد الله بما كان من أمر الأندلس عن لسان بن حوقل فتطلع إلى الاستيلاء عليها وبدأ بإرسال رسله إليها لنشر دعوة الشيعة فيها، ونجح رسوله مسرة في مهمته لحد ما وتهيأت الأفكار لقبول الشيعيين والأخذ بمبدئهم القاضي بإبادة المسيحية عن آخرها ولو كان أتيح لهم دخول الأندلس لهلك العنصر

المسيحي كله.

مملكة ليون المسيحية في الشمال: لما تم للعرب فتح الأندلس اعتصم ثلاثمائة من المسيحيين بزعامة بلاجيوس (بلاية) بجبال أستورقة واتخذوا من كهوف الجبال بيوتا ولم يمض عليهم زمن طويل حتى سلم بعضهم ومات آخرون جوعًا فلم يبق منهم سوى ثلاثين رجلا وعشر نساء فاستخف العرب بأمرهم فأخذ عددهم في الزيادة ثانية بمن لجأ إلى هذه المعاقل الطبيعية وما لبثوا أن استطاعوا هزيمة مؤنوسا زعيم البربر وعندئذ تزوج ألفونس ملك كانتاريا بابنة بلاجيوس وصار ملكًا على الإقليمين، ولما كانت ثورة البربر التي تمت بهزيمتهم تشجع المسيحيون في جليقية وانضموا إلى الملك ألفونس وخلصوا البلاد من البربر حتى مصب نهر دورو وفصل بينهم وبين المسلمين خط يمتد من بامبلونة إلى وادي الحجارة مارا بطليطلة على نهر التاجة، ولكن ألفونس رأى أن يعود بقومه إلى الشمال ثانية، ومن ذلك الوقت أصبحت ليون عاصمة الشمال ولما شبت الثورات في جنوب الأندلس في النصف الثاني من القرن التاسع بزعامة ابن حفصون عاد المسيحيون إلى نهر ألدورو وأقاموا الحصون المنيعة.

ثم تكوّن حلف من ألفونس ملك ليون وكانتابريا وأهل طليطلة وسانكو ملك نافارا، وأخذ قسسهم يحرضونهم على كراهة العرب ويعدونهم ليوم ينتقمون فيه من الإسلام شر انتقام فكان على عبد الرحمن الناصر أن يواجه هذا الخطر المحدق بالبلاد وبحضارتها من جهة المسيحيين في الشمال والشيعيين في الجنوب.

أولًا: المسيحيون: في عام ٩١٤ أغار أوردونو الثاني على ماردة وقتل ما بها من حامية وسبى النساء والأطفال، وعاد مثقلا بالأسلاب وفي عودته أقام كنيسة للعذراء وفي عام ٩١٦ أرسل عبد الرحمن قائده ابن أبي عبده لمعاقبة المسيحيين فنجح في حملته الأولى، ولكنه هزم في الثانية وقتل في ميدان القتال وأراد عبد الرحمن أن يسير بنفسه على رأسه جيشه إلى الشمال ولكن ما كان من الفاطميين في المغرب الأقصى شغله عن ذلك.

ثانيًا: في إفريقية: كان سعيد الثاني أمير ناقور من بلاد مراكش على أحسن ولاء مع الأمويين بالأندلس فإذا كان عام ٩١٧ سار مسالة قائد عبيد الله الشيعي إلى ناقور ودخلها وخطف نساءها وقتل سعيد وهو يدافع عن بلاده وفر أولاده الثلاثة إلى مالقة بإسبانيا وكانوا موضع إكرام عبد الرحمن، وأقاموا في مالقة ستة أشهر ثم علموا بخروج مسالة من ناقور فذهبوا إليها واجتمع حولهم العرب ونجحوا في تخليص إمارتهم وأقاموا صالحًا أصغرهم أميرًا عليهم (صالح الثالث) وعندئذ أرسلوا لعبد الرحمن خطاب شكر واعترفوا بدخولهم في طاعته وطلبوا حمايته فأرسل جندًا وسلاحًا وخيامًا وأعلامًا..

وفي هذا الظرف (ربيع عام ٩١٨) جدد أوردنو وحليفه سانكو القتال وأغاروا على البلاد الإسلامية في جنوب حدودهم هدموا جامعًا فتذكر عبد الرحمن أمرهم فأرسل إليهم بدرًا حاجبه ودار بين الفريقين معركتان في ١٣و١٥ أغسطس كان النصر فيهما لبدر ثم سار عبد الرحمن بنفسه إلى الشمال فدمر الحصون وخرب القلاع وأحرق القرى وقتل الحاميات التي اعترضته في طريقه وأخيرًا لاقى سانكو وهزمه وفر الأخير إلى الجبال ثم ضم من بقي من رجاله إلى جيش أوردونو وذهبا لمقاتلة عبد الرحمن فهزما شر هزيمة

وطارد المسلمون أعداءهم ودخلوا حصونهم قتلوا حاميتها.

النتيجة: أخضع عبد الرحمن نافارا وجمع جنده أسلابًا وافرة.. وفي ٨ سبتمبر بدأ عبد الرحمن عودته إلى قرطبة ودخلها في ٢٤ بعد أن تغيب ثلاثة أشهر قام فيها بأجل الأعمال واستطاع أن يستريح من مقاتلة المسيحيين ثلاث سنوات وفي سنة ٩٢١ جدد أوردونو القتال وغزا البلاد الإسلامية حتى أصبح على مسير يوم من قرطبة، وفي إبريل سنة ٩٢٤ خرج إليه عبد الرحمن واستخلص منه البلاد وفي يوليو دخل نافار واستولى على عاصمتها بامبلونة ولم يهتم بأمر مملكة ليون إذ كانت الثورات الداخلية قائمة فترك أهلها يقتل بعضهم بعضًا، ولو دخل ليون إذ ذاك لقضى عليهم ولكن إهماله أمرها كلفه ثمنًا غاليا فيما بعد في عام ٩٣٩.

وفي سنة ٩٢٩ لقب نفسه بالناصر أمير المؤمنين. أثناء ذلك استطاع مُحَمَّد بن خازر زعيم البربر تخليص إفريقية الوسطى من يد الفاطميين بعد أن قتل بيده قائدهم مسالة وأدخل هذا الإقليم تحت حماية أمير المؤمنين بالأندلس وفي سنة ٩٣١ احتلت جند عبد الرحمن مدينة سبتة وجعلوها ثغرا حربيا.

ثالثًا– حلف مُحَمَّد بن هاشم أمير أرجونة: رغم اعتراف عبد الرحمن لأمير أرجونة بحقه في حكم إمارته فقد ذهب الحقد بهذا الأمير إلى عقد مخالفة بينه وبين ملك ليون (راميرو) وأمير نافارا فخرج إليهم عبد الرحمن في عام ٩٣٧ وانتصر عليهم وهدم ثلاثين حصنًا لهم وحاصر سرقسطة ودخل نافارا وسلم مُحَمَّد بن هاشم وطلبت ملكة نافارا (تيودا) الصلح على أن تخضع لأمير

المؤمنين. وعاد عبد الرحمن والأندلس كلها ما عدا ليون وجزء من إقليم كتالونيا خاضعة لسلطانه، وقد حاول في عام ٩٣٩ إخضاع ليون فهزم شر هزيمة بسبب خيانة بعض قواده في معركة الخندق[١]. مما زاد من حزنه استرجاع الفاطميين نفوذهم بزعامة المنصور في إفريقية وقتلهم أبازيد[٢] زعيم البربر وطردهم عامل عبد الرحمن على مدينة سبتة مما أدى إلى وقوع قتال في البربر والبحر بين أمير الأندلس والمعز لدين الله الفاطمي واختلف النصر فيه بينهما.

وكان فصل الختام بين عبد الرحمن وملك ليون وملكة قشتالة سنة ٩٥٥ فقد طلبا الصلح وقبل عبد الرحمن منهما ذلك وأرسل سفيرًا من قبله إلى ليون ولكن الصلح لم يدم إلا بين عبد الرحمن وملكة قشتالة.

وفي ١٦ أكتوبر سنة ٩٦١ مات عبد الرحمن الناصر في السنة السبعين من عمره والتاسعة والأربعين من حكمه.

أثر حكمه: خلّص البلاد من الفوضى التي أحاطت بها في عهد جده عبد الله بن مُحَمَّد – دفع عنها غارات الإسبان من مسيحيين ومسلمين – كان أول من استطاع أن يخضع الشمال لحد ما – رد عنها أطماع الفاطميين – رفع البلاد إلى درجة لم تصلها من قبل – ملأ خزانتها بالأموال من دخل سنوي قدره ستة ملايين وربع مليون دينار ويبلغ مجموع ما اقتصده عشرين مليونًا وفي عهده تقدمت الحضارة من كل وجوهها – شجع الزراعة والصناعة وانتشرت التجارة وارتقت الفنون وأثمرت العلوم وبلغت قرطبة عظمة جعلتها

[١] ذلك أنه جعل قيادة جيشه لناجد الصقلبي؛ فكره العرب أن يروا أنفسهم دون غيرهم فاتفقوا على العمل على الهزيمة فهزم الجيش وكاد الرحمن يفقد حياته.

[٢] دوزي وابايزيد عن لينبول.

في صف بغداد – ولم تكن الزهراء التي بناها تشييدًا لذكرى زوجه أقل جمالا وأبهة من غرناطة. بدأ بنيانها في سنة ٩٣٦ وظل العمل قائمًا لإتمامها مدة ٢٥ سنة ومات عبد الرحمن قبل أن يتم البناء. وقصر الخليفة بالزهراء مثال العظمة وأبهة الملك.

ولقد بلغت الأندلس في عهده من الوجهة الحربية قوة عظيمة رأينا ما كان من أثرها، ولما اشتهر اسمه في أوربا أرسلت دولة بيزنطة وأمراء الألمان وملوك إيطاليا وفرنسا سفراءهم إلى قرطبة وقد عدَّ التاريخ عبد الرحمن مثالا لملوك العصر الحديث رغم كونه من ملوك العصور الوسطى.

رأي في حكومته: كان عبد الرحمن ملكًا مطلقًا جمع السلطة كلها في يديه ولم يجعل منها شيئًا لأمراء العرب، فضلا أنه عزل حاجبه أو كبير وزرائه واتخذ من صغار القوم حكاما كانوا طوع إرادته وجعل من الصقالبة ما يقرب من ١٤ ألفا بين جنده وفضل زعماءهم على العرب في قيادة جيوشه مما جعل العرب يحقدون عليه. وفي كثير من أحواله كان يأتمر برأي الفقهاء ويخافهم. ولقد جبهه القاضي منذر بن سعيد ولم يجرؤ على الاقتصاص منه.

الحكم الثاني المستنصر بالله

(٣٥٠ – ٣٦٦هـ : ٩٦١ – ٩٧٦م)

قام بالخلافة بعد أبيه عبد الرحمن، وكان ميالا للسلم فاتخذت ليون وملكها سانكو ونافارا وملكها جاركيا فرصة من تخلصهم من الناصر واعتلاء ابنه عرش الخلافة للخروج على الصلح السابق على زعم أن الحكم قد تعوزه المقدرة الحربية التي كانت لأبيه وبدأ خروجهما على شروط

الصلح السابق بأن رفضا هدم بعض الحصون وانضمت إليهما قشتالة في مضمار العداء وبدأ أميرها فيرنان جونزاليز غاراته ولكن مالبثوا أن وجدوا الخليفة الجديد قائدًا جريئًا وكان أول أعماله الحربية أن قاتل فيرنان وسحق جيشه وأجبره على الفرار ثم عاد إلى قرطبة وقدم عليه أوردونو الشقي ليقدم خضوعه وطاعته ومحالفته للمسلمين.

قبل الحكم ذلك وأعد جيشًا بقيادة غالب لغزو ليون وإعادة أوردنو على عرشها، وما كاد سانكو يعلم بذلك حتى أرسل وفدًا من وجهاء قومه ورجال الدين بينهم إلى قرطبة ليسألوا الخليفة العفو ويظهروا استعدادهم لتنفيذ ما نقض من شروط الصلح الذي كان بينهم وبين عبد الرحمن غير أن أمثال تلك العهود من جانب المسيحيين في كل أحوالهم لم تكن إلا هدنة لظرف أحاط بهم فلا نعجب إذا أن نرى سانكو في نهاية عام سنة ٩٦٢ يجدد الحرب وتنضم إليه قشتالة ونافار وكتالونيا: إزاء ذلك اضطر الحكم لمقاتلهم فلاقى أولا جونزاليز وهزمه وأجبره على قبول صلح (نقضه المسيحي عقب عقده مباشرة) وصار غالب إلى ليون فمر بمدينة سالم وهزم جموع سانكو وأخضع جليفة ثم سار للانضمام إلى جيش يحيى بن مُحَّد التنجيبي ودخلا معا إقليم باسك وأخضعا أميره ابن خلدون ثم نافارا واستوليا على مدنها واحتلت الحاميات الإسلامية قلاعها.

وأخيرًا خضع سانكو ٩٦٦ وتبعه أمير كتالونيا وأمير باسك غيرهم وقبلوا صلحًا شروطه: أن يقبلوا أن يهدموا معاقلهم – لا ينضمون إلى الثورات المسيحية – لا يكونون حلفًا فيما بينهم لمقاتلة المسلمين، وبذلك استتب الأمن في ربوع الأندلس والفضل في ذلك طبعا يعود إلى كفاية

الحكم الثاني وما لبث أن انقسم المسيحيون على أنفسهم واشتبكوا في حرب صغيرة داخلية أضعفتهم لدرجة أن تمكن النورمانديون في جيش صغير من الاستيلاء على (جليقية) حيث أقاموا ثلاث سنوات.

في المغرب الأقصى: في عام ٩٧٢ أرسل الحكم جيشًا إلى موريتانيا (بلاد المغرب الأقصى، مراكش) ليواجه الفاطميين ويضع حدًا لتقدمهم في تلك البلاد واستطاع غالب أن يبسط نفوذ خليفة الأندلس بين قبائل زنانة ومكناسة وجعل الخطب في المساجد باسمه، ولقد دخل الأندلس في ذلك العصر كثير من العلويين المقيمين في فاس وملقا إكرامًا زائدًا من الحكم.

الحكم وتشجيعه للأدب والعلوم: قرب الحكم إليه رجال الأدب والعلوم وعني بجمع الكتب وفاق من سبقه من ملوك الأندلس في هذا المضمار حتى بلغ فهرست الكتب الموجودة بمكتبة الخلافة ٤٤ جزءًا وعدد الكتب ٤٠٠ ألف كتاب، وقيل أنه جعل الأندلس سوقًا كبيرة لعلوم مختلف الأمم وآدابهم، وكثيرًا ما أرسل رسله إلى البلاد الأخرى لجمع ما تصل إليه أيديهم من نفائس الكتب وابتاعوها بأغلى الأثمان وجعل مكافآت مالية عظيمة للمؤلفين، ومن ذلك أنه أرسل ألف دينار لأبي الفرج الأصفهاني لتأليفه كتاب الأغاني وإرساله نسخة منه إلى الأندلس.. جعل من قصره حجرًا خاصة للنسخ ووكل كل ذلك إلى أدباء قومه، ولقد قرأ الحكم كثيرًا من هذه الكتب وعلق عليها بنفسه فأزهرت العلوم والآداب في عصره حتى أصبح أهل الأندلس عامة يعرفون القراءة والكتابة سيما وقد كان لا يعرفها في أوربا إلا رجال الدين، والفضل في ذلك راجع إلى نشر التعليم المجاني بمدارس أنشأها خصيصًا لذلك، وفي عهده كانت جامعة

قرطبة أشهر دور العلم في قرطبة لا يدانيها إلا الأزهر في القاهرة، ولم تصل إلى درجتها الجامعة النظامية في بغداد.

وكان أبو بكر بن معاوية يلقي محاضراته في الحديث النبوي وشرحه، وأبو علي القالي في أخبار العرب وآدابهم وجمعت محاضراته في كتاب يسمى الأمالي. وكان بن القوطية أستاذ قواعد اللغة العربية. ومن بين أولئك الطلبة نذكر أحدهم وهو ابن عامر مُحَمَّد ويرجع في نسبه إلى قبيلة بني عامر اليمنية وأبوه عبد الله كان من علماء عصره وجده مُحَمَّد كان قاضي مدينة إشبيلية وجاء مُحَمَّد هذا إلى قرطبة لتلقي العلم في جامعتها وكان فطنًا نبيهًا حاد المزاج قوي الجسم ولما أتم دروسه اشتغل بكتابة الالتماسات والعرائض التي يقدمها الناس للخليفة. واختار له محلا قريبًا من باب قصر الخلافة ثم صار كاتبًا بمحكمة قرطبة ولما لم يستطع اكتساب رضاء قاضيها "بن السالم" رأى هذا نقله إلى جهة أخرى فعين في وظيفة بقصر الخلافة بأمر المصحفي وزير الحكم الثاني وهذا عهد إليه بتربية أكبر أولاده عبد الرحمن بعد موافقة الملكة صباح (٩٦٧) ثم عين رئيس قسم سك النقود (دار الضرب) وبفضل هذه الوظيفة أصبح على اتصال بالطبقات الراقية ونجح في اكتساب رضاء الملكة صباح بفضل جميل هداياه ورغما عن وشايات منافسيه فقد تقلب في وظائف عدة وعين قاضيًا لإشبيلية ولما مات تلميذه عبد الرحمن قام بأمر هشام ولي عهد الخلافة ثم صار رئيس حرس الخليفة وشيد لنفسه قصرًا بالرصافة يماثل قصور الأمراء وكان قصره قبلة أصحاب الحاجات.

ولما تم لغالب فتح المغرب الأقصى أرسل الخليفة ابن عامر رئيسًا لقضاتها ومراقبا لإدارتها السياسية والحربية فقام بواجبه خير قيام فرضي عنه

الخليفة وأحبه مَنْ تحت إمرته وتقرب إليه رؤساء قبائل البربر.

عقب هذه الحوادث عاد غالب إلى قرطبة في موكب حافل ومعه أسرى الأدارسة وهؤلاء دخلوا في خدمة الخليفة (سبتمبر سنة ٩٧٤) وبعد ذلك بقليل مرض الحكم الثاني فانقطع لعمل الخير وسلم أمر الملك لوزيره المصحفي فأمر هذا بإرسال الأدارسة إلى الإسكندرية ثم استدعى الوزير يحيى بن مُحَمَّد التجيبي بن حمدون وعند قدوم الوزير يحيى أعاده إلى منصبه الأول حاكمًا على الحدود حتى يكبح جماح المسيحيين.

ومات هذا الخليفة العظيم في (٢ صفر ٣٦٦هـ) الموافق أول أكتوبر ٩٧٦ بعد أن أخذ البيعة على أمراء العرب وقواد الجيش ورعيته عامة لابنه هشام.

هشام الثاني بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر

٣٦٦ – ٤٠٣هـ

حكومة الوصاية: لما مات الحكم ظن مواليه – وخاصة فائق وجودر – أن لهما دون غيرهما حق اختيار الخليفة، وذلك يرجع إلى ما وصلت إليه تلك الفئة من نفوذ وسلطان في عصر الحكم وأدى بهم النظر وراء مصالحهم الذاتية أنه لو آلت الخلافة إلى هشام حسب وصية أبيه كان لا بد أن يقوم بالوصاية عليه الوزير المصحفي (وكان هشام في الحادية عشرة من عمره) وهذا يجمع السلطة في يده مما يؤدي إلى حرمانهم من نفوذهم علاوة على أن العرب لم يتعودوا حكومات الوصاية. أدى بهم هذا البحث إلى محاولة نقل الخلافة إلى المغيرة عم هشام فيصبح مدينًا بتاجه لهم

فيحكمون باسمه، وأرسلوا إلى المصحفي وأطلعوه على ما اتفقوا عليه فأظهر قبوله هذا الرأي خيفة أن يقتلوه وذهب لوقته وعقد مجلسًا خاصًا دعا إليه هشامًا ابن أخيه وابن أبي عامر وزياد بن أفلح وقاسم بن مُحَمَّد وغيرهم من ذوي السلطة والنفوذ وأعلمهم بوفاة الحكم وبرأي الخصيان، ثم اتفقوا فيما بينهم على إقامة هشام على عرش الأندلس وقتل المغيرة.. وعُهد بالأمر الأخير إلى ابن أبي عامر ونفذ على يديه وفي اليوم التالي جعل المصحفي أهل قرطبة يجددون بيعتهم لهشام، وهكذا قبل القوم حكومة الوصاية قهرًا ومن ثم أصبح المصحفي حاجب الخليفة وصار ابن أبي عامر وزيرًا ولكي يجعل له مكانة بين الطبقة الدنيا استصدر أمرًا من الخليفة بالغاء ضريبة الزيت وكانت ثقيلة على القوم فأحبه الناس وعدوه نصير الفقراء وما لبث أن استطاع أن يخلص قصر الخلافة من زعماء الخصيان فأمر بنفي فايق إلى جزيرة من جزر البليار وبقتل الدري، وكان جودر طلب إقالته فأقيل وسر أهل قرطبة سرورًا زائدًا لخاتمة أولئك الظلمة.

المسيحيون: منذ علم المسيحيون بمرض الخليفة السابق (الحكم) تجرءوا على الإغارة على البلاد الإسلامية وواصلوا غاراتهم حتى أبواب قرطبة مما جعل الناس يفزعون وينقمون على حكومة الوصاية ضعفها فأسر أبن أبي عامر إلى الملكة صباح أنه لو عهد إليه بأمر قيادة الجند لرد المسيحيين إلى بلادهم وعاقبهم على ما كان منهم، ووافقت حكومة الوصاية على إعداد جيش يقوده أبن أبي عامر إلى الشمال وفي فبراير سنة ٩٧٧ قاد ابن أبي عامر جيشه وعاد في أبريل محملا بالغنائم ومعه عدد كبير من الأسرى فعظمت منزلته بين أهل قرطبة وبفضل ما خص به جنده من مال وأرزاق أحبوه ورضوا به قائدًا

رغم خلوه من الصفات المؤهلة لهذا المنصب الخطير[3].

سقوط المصحفي: هو جعفر بن عثمان من نسل مغربي، وكان شاعرًا وأديبًا، ومرَّ بنا أنه كان وزير الحكم الثاني ولما مات ذلك الخليفة عارض خصيان القصر في نقل الخلافة إلى المغيرة وفكر في إقامة حكومة الوصاية ووافقه أنصاره على ذلك وجعل نفسه حاجب الخليفة الصغير أو كبير وزرائه، وكان طبيعيًا أن يقل نفوذه كلما زاد وقوي نفوذ ابن أبي عامر علاوة عما وصف به من كبرياء نفر الناس من حوله وخاصة الأمراء بسبب ضعة حسبه وبخله واستيلائه على قدر كبير من الدخل لنفسه وتعيين أولادة وأقاربه في المناصب العالية وكانت تعوزه الكفاية السياسية.

تبين لأبن أبي عامر كل ذلك فسعى جهده لإسقاط كبير الوزراء ليحل محله واستعان على ذلك بالكتمان فكان يطلع الملكة صباح سرًا على أخطائه، وكانت مخاوف المصحفي تنحصر في غالب حاكم الحدود لما له من نفوذ بين الجنود، وكثيرًا ما جاهر أنه أحق بمنصب رئيس الوزارة من المصحفي فكانت المنافسة بينهما شديدة وأراد أبن أبي عامر أن يستفيد من هذا الظرف فسعى أولا لدى الملكة صباح واستصدر منها أمرًا بتولية غالب رئاسة الحربية والإدارة ولقب بذي الرئاستين، ووافق المصحفي على ذلك جهلا منه بمسير الحوادث، وما لبث أبن أبي عامر أن أوثق روابط الصداقة مع الوزير الجديد واتفقا معا على إسقاط المصحفي وتزوج أبن أبي عامر من أسماء ابنة غالب، وقام الخليفة وأمه صباح بنفقات حفلة الزواج، وعين

---

[3] كانت القيادة الفعلية في هذه الحملة للقائد غالب الذي قبل أن يعترف بفخار النصر لابن أبي عامر نظير ما ناله من أموال منه.

غالب حاجبًا للخليفة ومن ثم سقط نفوذ المصحفي وفي مارس ٩٧٨ صدر أمر بعزل المصحفي وأولاده وأقاربه ثم قبض عليهم وحوكموا بتهمة سوء الإدارة وسجنوا بسجن مدينة الزهراء وصودرت أملاك المصحفي وبيع قصره بالرصافة وظل المصحفي في سجنه خمس سنوات ثم مات ويقال أنه قتل خنقًا[٤].

المنصور: لما عزل المصحفي صار ابن أبي عامر صاحب الكلمة العليا وأصبح له ولغالب حكم البلاد وعبثا حاول جودر الخصي ومن تآمر معه على قتل هشام إسقاط حكومة الوصاية أو مبايعة عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر؛ فقد فشل المتآمرون فيما أرادوا وقبض عمال الحكومة على زعمائها: عبد الملك بن منذر قاضي محكمة الاستئناف، والرمادي الشاعر، وغيرهما من رجال الأدب والدين.. وعلم بأمرها زياد بن أفلح حاكم قرطبة وغض الطرف عنها وحوكموا حسب نص الآية "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورَسُولَهُ ويَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدَيَهُم وأَرْجَلَهُم مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ" فكان جزاء عبد الملك الصلب ووجه أبن أبي عامر همه من ثم إلى إرضاء جماعة الفقهاء فأكرمهم وبجلهم وزاد من رواتبهم وأمر بإحراق كتب الفلسفة وعلم الفلك فأحرق منها عدد عظيم، ونسخ القرآن بيده، وأخيرًا أفلح في اكتساب صداقة تلك الطائفة وإذا ذاك وقد بلغ هذا الحد من السلطة فكر في أمر الملك الصغير وتدخل في أمر تربيته (كان الزبيدي يتولى أمر تعليمه)

[٤] ومما كتبه المصحفي وهو بالسجن إلى ابن أبي عامر: هبني أسأت فأين العفو والكرم * إذ قادوني نحوك الإذعان والندم

فأجابه المنصور: نفسي إذا سخطت ليست براضية * ولو تشفع فيك العجم والعرب

وجعلها قاصرة على حفظ القرآن ووجوب الصيام، ولكي يبعد رجال الحكومة عن الملك وقصره أمر ببناء الزاهرة شرقي قرطبة ونقل إليها الدواوين والموظفين ثم أقاموا سورًا وحفر خندقًا حول قصر الخليفة وأحاطه بسياج من الحراس فأصبح هشام سجينًا.

لم يرض غالب (مولي الحكم وصاحب مدينة سالم) بما حل بالخليفة الصغير وكثيرًا ما عارض أبن أبي عامر في بعض تصرفاته فرأى هذا أنه لا يقوم أمره إلا إذا تخلص من غالب ولا وسيلة إلى ذلك إلا بخلق جيش جديد من عرب المغرب ومسيحيي الأندلس وقد مكنته ظروف خاصة من استمالة أحد أمراء المغرب واسمه جعفر؛ فدخل الأندلس في ستمائة فارس من قومه ودخلوا في خدمة ابن أبي عامر وكذلك استطاع أن يجمع عددًا وافرًا من أهل ليون وقشتالة ونافارا ممن خلت نفوسهم من النزعة الدينية ودفعتهم الحاجة إلى الارتزاق وبفضل كرمه الحاتمي لجنده عامة جعل منهم جيشًا خاضعًا لإرادته لا يتأخر عن نصرته، وكان غالب يعلم بحقيقة نوايا ابن أبي عامر وخاطبه في ذلك، ثم هاج غضبه فجرد سيفه وضرب ابن أبي عامر فجرحه فكانت تلك الحادثة بداية فصل الختام بينهما ودارت المعركة الفاصلة عام ٩٨١ وانتهت بانتصار ابن أبي عامر لمعاقبة أهل قتل من أهلها أربعة آلاف وأحرق حقولها وهدم معاقلها..

وعندئذ تجمع حلف من ليون ونافارا وقشتالة ولكنهم هزموا شر هزيمة وقاد ابن أبي عامر عددا من الأسرى إلى قرطبة، وفي طريقه إليها لقب نفسه بالمنصور ثم جعل لنفسه شعار الخلافة بأجلى مظاهرها، وإذ ذاك وقد بلغ غاية أمانيه رأى أن يتخلص من جعفر قائد جند المغرب

فأوعز إلى رجلين من تجيب قتلاه (٩٨٣).

المنصور والمسيحيون في الشمال: تدخل المنصور في ثورة قامت في مملكة ليون (٩٨٤) بين ملكها راميرو وابن عم له يسمى برمودو فساعد ثانيهما وجعله يعتلي عرشها على أن يدفع الجزية سنويًا للخلافة، وفي مايو ٩٨٥ سار المنصور إلى كتالونيا وهزم أميرها ثم استولى على برشلونة عنوة وأباح لجنده النهب والسلب وعاد إلى قرطبة يزهو بفخار الانتصار.

لم يمض على ذلك زمن طويل حتى علم بمحاولة ابن كنون الإدريسي استرجاع موريتانيا فأرسل إليه جيشًا هزمه وقاده أسيرًا إلى قرطبة حيث ضرب رأسه في إسبانيا وبلاد المغرب فكر هو والمنصور وحكومته فكان لا بد له من استعادة حسن سمعته فأمر بتوسيع مسجد قرطبة ودفع لأصحاب البيوت المجاورة أضعاف أثمانها وجعل المسيحيين يشتغلون في الحفر ونقل الحجارة وكثيرًا ما شمر عن ساعده واشتغل بنفسه مع العمال، وبكل هذه المظاهر المدبرة بحكمته استرجع مكانته في نفوس القوم. وحدث إذ ذاك أن جددت ليون عداءها فسار إليها ودمر في طريقه الكنائس والأديرة والقصور والحقول، ولما وصل إلى ليون حاصرها ثم دخلها عنوة وأحدث بها مذبحة فظيعة ثم هدم أسوارها وبيوتها عن آخرها (٩٨٧) وكذلك فعل بمدينة زامورا، وقصارى القول أخضع البلاد كلها ثم عاد إلى قرطبة وعند وصوله علم بمؤامرة زعماؤها ابنه عبد الله وعبد الرحمن بن مطرف التجيبي حاكم الحدود الشمالية وقائد يدعى عبد الله ويعرف بذي القلب الصخري، ولقد استطاع المنصور بدهائه أن يحبط هذه المؤامرة دون أن يظهر أنه يعلم بأمرها ثم قتل الاثنين الأولين وسجن الثالث.

وعندئذ أصبح المنصور الحاكم الحقيقي للبلاد، وعين ابنه عبد الملك حاجبًا ولقب نفسه بالمؤيد (لقب هشام) وأمر أن لا يصرف شيء من خزانة الخلافة إلا بأذنه حتى لو كان الأمر مذيلا بإمضاء هشام نفسه، ثم جعل اسمه السيد والملك الكريم، وقد وصلت الحالة إلى هذا الحد ولم يحرك هشام ساكنا وما كان ينتظر منه أن يحاول شيئًا من ذلك.. لم يخش المنصور بأسه وكذلك لم يهتم بأمر الأمراء، أو الجيش وانحصرت مخاوفه في الشعب لعلمه أن القوم ما كانوا يرضون أن يروه ينتزع الخلافة من حفيد الناصر. ورغم تدبيره وطول تفكيره فقد واجهه الخطر من جهة أخرى وذلك أن الملكة صباح أخذت تهيىء أفكار هشام ليتولى حكومة البلاد بنفسه ودبرت مؤامرة غرضها خلع المنصور وكاتبت زيري بن عطية والي المغرب الأقصى ليعمل على إنقاذ ابنها مما وصل إليه وأمدته بالأموال المنصور بدهائه توصل إلى أخذ وثيقة من هشام يأمره فيها أن يحكم البلاد بالنيابة عنه (٩٩٧) لعدم استطاعته شخصيًا القيام بأمور المُلك، وبذلك تمت هزيمة الملكة صباح فقطعت آمالها بيدها وتفرغت للصلاة والعبادة ولكي يضع حدًا حاسمًا لهذا الموقف المتزعزع أرسل جيشًا لإخضاع زيري بالمغرب وسار بنفسه للاستيلاء على كنيسة في جليقية كانت كعبة المسيحيين في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا (سانتيا جودي كومبوستيلا وقال العرب عنها شانت ياقب) ووصل إليها بعد أن خرب كل ما مر به من كنائس وأديرة وحصون، وأخيرًا وجدها خالية من أهلها فأمر بالمحافظة على قبر القديس وعين حارسًا لذلك أما المدينة نفسها فصارت أثرًا بعد عين وواصل المنصور الفتح والنهب حتى كورونه على المحيط ومن ثم عاد إلى

قرطبة ومعه أسرى المسيحيين وأبواب الكنيسة ونواقيسها وكاك كانت الحملة التي وجهت إلى المغرب موفقة وأخضعت الإقليم لخلافة قرطبة ومات زيري في عام ١٠٠١.

وفاة المنصور ١٠ أغسطس ١٠٢٢م

خرج المنصور في تلك السنة لغزو قشتالة وانتصر على أهلها وهدم دير قديسها وفي عودته شعر بمرض واشتد عليه في طريقه فتأكد قرب وفاته فاستدعى ولديه: عبد الملك، وعبد الرحمن؛ فجعل قيادة الجيش لعبد الرحمن وأرسل عبد الملك إلى قرطبة وزودهما بإرشاداته ليحتفظا بما وصل إليه من قوة وعظمة، وما لبث أن فارقت روحه جسده ودفن بمدينة سالم بعد أن حكم البلاد سبعة وعشرين سنة، وبلغ من المُلك ما لم يبلغه الناصر ونقش على قبره

آثاره تنبيـــك عـــن أخبـــاره ... حـــتى كأنـــك بالعيـــان تـــراه
تالله لا يأتي الزمـــــان بمثلـــــه ... أبـــدًا ولا يحمـــي الثغـــور ســـواه

ومن شعر المنصور بن أبي عامر يفخر بنفسه

رميت بنفسي هول كل عظيمـة ... وخاطرت والحر الكـريم يخاطــر
وما صـاحبي إلا جنـان مشيـع ... وأسمـر خطـي وأبيــض بــاتــر
فسدت بنفسي أهل كل سيادة ... وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنيانا ولكـن زيـادة ... على ما بنى عبد الملك وعـامـر
رفعنا العـوالي بالعـوالي مـثلهـا ... وأورثنـاهـا في القــديم معافــر

ومما يروى عنه: قدم بعض التجار ومعه كيس فيه ياقوت نفيس،

فتجرد ليسبح في النهر وترك الكيس على ثيابه وكان أحمر، فرفعته حدأة في فجرى تابعا لها وقد ذهب، فتغلغلت في البساتين وانقطعت عن عينه، فرجع متحيرًا، وشكا ذلك إلى بعض من يؤنسه، فقال له: "صف حالك لابن أبي عامر" ففعل فقال: "ننظر إن شاء الله تعالى في شأنك"، وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين ويسأل خدامها عمن ظهر عليه تبديل حال، فأخبره أن شخصًا ينقل الزبل اشترى حمارا وظهر من حاله ما لم يكن قبل ذلك، فأمر بمجيئه فلما وقعت عينه عليه قال له: "أحضر الكيس الأحمر" فتملك الرعب قلبه وقال: "دعني أحضره من منزلي" فوكل به من حمله إلى منزله وجاء بالكيس وقد نقص منه ما لا يقدر ميسرة صاحبه فجبره ورده إليه، فقال: "والله لأحدثن في مشارق الأرض ومغاربها أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور وينصف منها"، والتفت ابن أبي عامر إلى الزبال وقال له: "لو أتيت به أغنيناك لكن تخرج كفافا لا عقابا ولا ثوابا".

ومما يروى عنه أيضًا أنه تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس حتى محا طغاتها وغادرهم صرعى ووالى على بلادهم الوقائع، ومن أوضع ما حدث أن أحد رسله سار في بعض مسراته إلى غرسية صاحب البشكنس فوالى في إكرامه وبره واحترامه وطالب به المدة حتى حل ذات مرة في كنيسة من الكنائس وبينما يجول في ساحتها إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر وعرفته بنفسها وقال له: "أيرضي المنصور أن أظل رهينة الأسر ولى عدة سنين بهذه الكنيسة أذوق ذل الصغار ومرارة الحبس؟" وناشدته الله في إنهاء قصتها إليه فلما وصل إلى المنصور أعلمه بشأنها وحدثه بقصتها فأخذ للجاد من فوره وأصبح غازيًا على سرجه حتى وافى ابن شانجة (غرسية

صاحب البشكنس) فأخذته مهابته وأرسل إليهم رسالة فعنفهم وقال لهم: "لقد عاهدني ألا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور وقد بلغني بعد بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة فوالله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها" فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها وأقسم أنه ما أبصرهن ولا سمع بهن وأخبره أن الكنيسة المعهودة قد بالغ في هدمها تحقيقًا لقوله فانحنيا منه وصرف الجيش عنه.

وكانت أمه تميمية فحاز الشرف بطرفيه ولذا يقول فيه الشاعر:

تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلالا في العلا وبدور

من الحميريين الذين أكفهم سحائب تهتي بالندى وبحور

وكان شديد الاعتداد بالنفس بعيد الأمل قوي الرجاء عالي الهمة، ولا أدل على ذلك من قوله يمني نفسه بملك مصر والحجاز

منع العين أن تذرف المنايا حبها أن ترى الصفا والمقاما

لي ديون بالرشق عن أناس قد أحلوا بالمشعرين الحراما

إن قضوها نالوا الأماني وإلا جعلوا دونها رقابا وهاما

عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النيل خطوها والشاما

ومن أعماله في البر والقربى بناؤه قنطرة على نهر قرطبة الأعظم فعظمت بها المنفعة وصارت صدرًا في مناقبه الجليلة، وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة ولم يكن للقنطرة عدول عنه فأمر بإرضائه فيها فحضر الشيخ عند أمنائه فساوموه بالقطعة وعرفوه وجه الحاجة إليها وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فطلب الشيخ عشرة دنانير كانت عند أقصى أمنية وشرطها صحاحا،

فاغتنم الأمناء غفلته ونقدوه الثمن وأشهدوا عليه ثم أخبروا المنصور الخبر فضحك من جهالته وأنف من غبنه وأمر أن يعطي عشرة أمثال ما سأل وتدفع له صحاحا كما قال فقبض الشيخ مائة دينار ذهبا وخرج محتفلا في شكر المنصور وصارت قصته خبرًا سائرًا.

ومما يروى عن عدله: أنه وقف عليه رجل من العامة ونادى: "يا ناصر الحق إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك" وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة، وكان له فضل محل عنده ثم قال: "وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت"، فقال له المنصور: "اذكر مظلمتك" فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصف فقال المنصور: "ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية" ثم نظر إلى الصقلي (صاحب الدرقة) وقد ذهل عقله وقال له: "ادفع الدرقة إلى فلان وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك" ففعل ومثل بين يديه ثم قال لصاحب شرطته الخاص به: "خذ بيد هذا الفاسق وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه" ففعل ذلك وعاد الرجل إليه شاكرًا فقال له المنصور: "وقد انتصفت أنت اذهب لسبيلك وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي" وتناول الصقلي بأنواع من المذلة وأبعده عن الخدمة.

حكومة المظفر عبد الملك بن المنصور:

عند وصوله إلى قرطبة وجد بها ثورة والثوار يصيحون (لا يحكم الأندلس إلا أميرها هشام) ولكن هذا توسل وتضرع أن يترك داخل قصره آمنا مطمئنًا، فأخضع المظفر الثورة بقوة الجند وأحبط مؤامرة زعيمها هشام من أحفاد الناصر وأمر به فقتل سنة ١٠٠٦ ولما استتب له الأمر سار على خطة أبيه

وأعاد الأمن إلى البلاد وأخضع المسيحيين مما جعل المؤرخين يعدون عصره ضمن عصور الأندلس الزاهرة، ولا شك في أن حالة البلاد تطورت واختلفت عما كانت عليه من قبل وإليك البيان:

- نجح أخيراً ما سعى إليه عبد الرحمن الناصر جهده من إدماج العصبيات بعضها ببعض وتكوين شعب أندلسي نسي أفراده أحسابهم وأنسابهم وزالت رياسة القبائل واندثر هذا النوع الحكومي المقام على مبادئ الديمقراطية العربية الأولى وغاب من أفق السياسة نفوذ الأمراء وأشرقت شمس الملكية المطلقة.
- انتقل النفوذ السياسي إلى الجيش وأغلبية جنده وقواده من البربر أو المسيحيين ولضعة أحساب هؤلاء لم يحفل القوم بهم ولم يحترموهم وكرهم الشعب لما كثر اعتداؤهم على الأرواح.
- اغتنى أفراد الطبقة الوسطى نتيجة اشتغالهم بالصناعة والتجارة فبدأ تناع الطبقات بين بعضها والبعض الآخر.
- قامت بين القوم نظرية حرية التفكير أثرا لدراستهم الفلسفة اليونانية والعلوم الرياضية فبحثوا في أمر النظم الحكومية والعقائد الدينية فنظروا فيما كان من أمر السنيين والمعتزلين والشيعيين، وعبثا حاول الدين التوفيق بين تلك المذاهب.

وهذه التطورات في جملتها كانت كافية لقيادة قرطبة إلى ثورة كان ينتظرها بفارغ الصبر أعداء بيت بني عامر لإسقاطهم وإبادتهم، وينتظرها أيضًا أنصار الخلافة لإعادة السلطة إلى الخليفة، ويتمنى حدوثها الرعاع لينتقموا من طبقة الأغنياء ومات المظفر في أكتوبر سنة ١٠٠٨م، ٣٩٩هـ ولم تخط قرطبة

الخطوة المنتظرة. آلت الوزارة عندئذ إلى عبد الرحمن أخي المظفر ويلقب بالمأمون ويعرف في التاريخ بسانكول أو سانكو الصغير، وذلك لأن أمه كانت ابنة مسيحي يدعى سانكو فكرهه القوم لهذا السبب، وزاد من كراهيتهم له سوء أخلاقه وضعف مقدرته السياسية، ولكن رغم ذلك تجرأ هذا الوزير وطلب إلى هشام أن يجعل الخلافة إليه من بعده وبمساعدة بعض علماء الدين له أجاب هشام وكتب العهد أبو حفص بن برد وكانت هذه الخطوة كافية لإيغار الصدور.

صيغة العهد:

هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة وعاهد الله عليه من نفسه خاصة وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة. بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة وأهمه ما جعل الله إليه من الأمانة وعصب به من أمر المؤمنين واتقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، وخشي أن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علم تأوي إليه وملجأ تنعطف عليه أن يكون يلقى ربه تبارك وتعالي مفرطا ساهيا عن أداء الحق إليه ونقص عند ذلك من أحياء قريش وغيرها من يستحق أن يسند هذا الأمر ويعول في القيام به عليه ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وصيانته بعد إطراح الهوى والتحري للحق والزلفى إلى الله ﷻ بما يرضيه وبعد أن قطع الأواصر، وأسخط الأقارب فلم يجد أحدًا أن يوليه عهده ويفرض إليه الخلافة بعده لفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مرتبته وعلو منصبه مع تقاه وعفافه ومع رفعته وجزمه من المأمون الغيب الناصح الحبيب أبي المظفر عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر مُحَمَّد بن أبي عمر وفقه الله إذ كان أمير المؤمنين

أيده الله تعالى، قد ابتلاه واختبره وتطرق شأنه واعتبره فرآه مسارعا في الخيرات سابقًا في الحلبات مستوليا على الغابات جامعا للمأثرات ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سبيل البر مداه ويحوي من خلال الخير ما حواه مع أن أمير المؤمنين أيده الله بما طالع من مكنون العلم ووعده من مخزون الأثر يرى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمر بن العاص وأبو هريرة أن النبي ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه" فلما استوى الاختبار وتقابلت عنده فيه الآثار ولم يجد عنه مذهبا ولا إلى غيره معدلا خرج إليه من تدبير الأمور في حياته وفرض إليه الخلافة بعد وفاته طائعا راضيا مجتهدا وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه وأنجزه وأنفذه، ولم يشرط فيه مثنوية ولا خيار وأعطى على الوفاء به سره وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه وذمة نبيه مُحَمَّد ﷺ، وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه وذمة نفسه ألا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول، وأشهد الله على ذلك والملائكة وكفى بالله شهيدًا، وأشهد هو جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المظفر عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى وقبوله ما قلده وإلزامه نفسه ما ألزمه وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤٩٧ وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم وتسمى بعدها بولي العهد.

الثورة في قرطبة:

حدث في عام ١٠٠٩ (٣٩٩هـ) أن خرج عبد الرحمن لغزو ليون، ولما عاقته التغيرات الجوية عن متابعة سيره عاد إلى طليطلة وعند وصوله إليها علم بقيام الثورة في قرطبة بزعامة "مُحَمَّد بن هشام" حفيد الناصر الذي قتله المظفر

في بداية أمره، وقد استطاع زعيم الثورة أن يجمع أربعمائة من الأبطال واختار من بينهم ثلاثين سار بهم في مساء الخميس ٢٥ فبراير سنة ١٠٠٩ وباغت حراس قصر الخليفة ودخل القصر وقتل صاحب الشرطة وإذ ذاك وصل بقية أتباعه يقودون أهل قرطبة وهاجموا قصر هشام فما كان من الخليفة وقد يئس من أية مساعدة إلى أن استدعى محمدًا وتنازل له عن الخلافة وهذا قبلها.

وفي صبيحة اليوم التالي عين مُحَمَّد أحد اتباعه رئيسا للوزارة وآخر حاكما على قرطبة، ودعا أهل الأندلس عامة إلى التجنيد، ولبى القوم نداءه ثم أمر وزيره بالمسير إلى الزاهرة وهذه سلمت دون أية مقاومة وعم الفرح أهل قرطبة لهذا النصر السريع ولم يتبين ما نالته الأندلس من خير على أيدي أسرة بني عامر إلا قليلون.

ولم تمض أربعة أيام حتى كانت الزاهرة أطلالا ولقب مُحَمَّد نفسه بالمهدي.

ما كان من أمر سانكول: ظن أولا أنه يستطيع استرجاع نفوذه بقوة الجيش ولكن ما لبث أن تفرق الجيش من حوله فظن ثانية أنه بمناصرة أتباعه في قرطبة يستطيع أن يصل إلى غرضه، ولما قرب منها ذهبت أحلامه فلم ير بدًا إذ ذاك من طلب العفو من المهدي والاعتراف بخلافته فقدم إليه وقبل الأرض بين يديه، ثم أمر المهدي أحد وزرائه فطاف به شوارع قرطبة ثم قتله وفصل رأسه عن جثته وذهبت أيام أسرة بني عامر كأن لم تكن ولله عاقبة الأمور.

الباب الرابع

عصر الفوضى

المهدي

(محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله)

سارت الأحوال في بداية خلافته على أحسن حال، ولكن لم يمض على ذلك طويل عهد حتى أدرك القوم أنهم ليسوا أحسن حالا مما كانوا عليه في عهد أسرة العامريين: وجدوا من خلق المهدي موضعا للطعن فقد كان قاسيا يحب سفك الدماء ميالا إلى المجون تعوزه الكفاية السياسية يقول فيه بعضهم

قد قام مهدينا ولكن   بملة الفسق والمجون
وشارك الناس في حريم   لولاه ما زال بالمصون

وشغلته أسباب اللهو في قصره عن الخروج إلى القوم والنظر في أمرهم فقد كان له مائتان من الموسيقيين يعزفون له شجي الأنغام بينما يتناول فاخر طعامه، ولهذا كرهه علماء الدين، ولما أمر بطرد آلاف من جيشه خرج عليه غوغاء قرطبة ولم يلبث أن فصل الكثيرين من جند البربر فانضموا إلى أعدائه وأمر من بقي منهم في خدمته ألا يركبوا الخيل ولا يتسلحوا ورد رؤساءهم عن باب القصر فانتهبت العامة دورهم.

لم يهتم المهدي بموقفه هذا من نفوس شعبه وانحصر خوفه مما قد

يكون من أمر هشام الخليفة السجين وذهب به التفكير أن أتى بجثة مسيحي عقب وفاته مباشرة وأدخلها القصر سرًا وأعلن وفاة هشام ورشا من بالقصر فأثبتوا صحة الوفاة ثم دعا العلماء والوزراء والقواد لتشييع جنازة الخليفة المزعوم، واحتفلت قرطبة في موكب حافل يليق بجلال الخلافة بنقل جثة المسيحي إلى مقرها الأخير ودفنوه في مقابر المسلمين، ونقل هشام إلى قصر أحد الوزراء: ظن المهدي عندئذ أنه أصبح في مأمن من طوارئ الحدثان فأمر بسجن سليمان بن عبد الرحمن الناصر فخرج ابنه هشام وقاد جند البربر وغوغاء قرطبة وقصد قصر المهدي وقابله وطلب إليه أن يخلي سبيل أبيه فأجاب طلبه وأخذ يحدثه طويلا في أمر الخلافة واستعداده للنزول عنها إليه وبينما هما كذلك اشتبك أهل قرطبة مع الثوار في معركة وما لبث أن جاء جند المهدي وأوسعوا الثوار طعنا وضربا واستمر القتال يوما وليلة ثم انتصر الجند وطردوا من بقي من البربر إلى خارج المدينة وأسر هشام وأبوه وقتلا.

لم يرض البربر بتلك الهزيمة لأمرهم فقام من بينهم الزاوي، واختار سلمان بن الحكم أخي هشام قائد الثورة الماضية وأخذ له البيعة على جند البربر ولقبوه المستعين بالله وساروا إلى المدينة سالم وطلبوا إلى حاكم الحدود أن ينضم إليهم، ولكنه قاتلهم فهزموه ثم أرسلوا رسلهم إلى سانكو أمير قشتالة يستنصرونه فوجد الرسل رسلا آخرين من قبل المهدي يطلبون مساعدته فكان هذا الموقف بداية مآسي الخلافة بالأندلس إذ حان الوقت الذي كان فيه أمر مصيرها بيد المسيحيين فكان لسانكو أن يختار من يشاء حليفا له ثم يملي عليه ما يشاء من شروط، وقاده رأيه الناضج إلى محالفة البربر وسار على رأس جيشه معهم إلى قرطبة ومروا بمدينة سالم وهزموا

حاكمها هزيمة منكرة وواصلوا السير إلى قرطبة، وخرج المهدي للقائهم ودارت المعركة في سهل شرقيّ قرطبة.

ودارت الدائرة على المهدي وأتباعه (٥ نوفمبر ١٠٠٩م – ٤٠٠هـ) ففر إلى قصره حيث حوصر ثم هرب إلى طليطلة ودخل سليمان قرطبة وبايعه أهلها وعاد سانكو وجنده مثقلين بالغنائم إلى بلادهم، ولما علم سليمان بحقيقة أمر هشام الثاني السجين جعله ينزل عن الخلافة له ثم أعاده إلى قصره سجينا وعقب هذه الحوادث خرج سليمان المستعين بالله يقود جند البربر، وسار إلى مدينة سالم ثم عاد وقبل أن يصل إلى قرطبة لحق به المهدي وأنصاره من المسيحيين ودار القتال بين الطرفين عند عقبة السفر وكاد النصر يكون لسليمان لولا أنه جبن وفر ولم يؤثر هروبه في نفوس فرسان المغرب الذين جدُّوا في القتال ثم عادوا إلى قرطبة وتبعهم المهدي فكانت المدينة فريسة بين الجيشين الذين تنازعاها مرارا، وأخيرًا فكر زعماء الجيشين في الغدر بالمهدي وإعادة الخلافة إلى صاحبها هشام الثاني، ودبروا لذلك خطة محكمة انتهت بقتل المهدي وإعادة هشام الثاني، ودبروا لذلك خطة محكمة انتهت بقتل المهدي وإعادة هشام إلى عرشه (٢٣ يوليو ١٠١٠) وقام واضح بحجابته.

هشام الثاني وحاجبه واضح العامري

أراد واضح أن يسير سيرة المنصور وكان ذلك سهلا عليه في ظل هشام الثاني وهو على ما رأينا ضعيف الإرادة، ولكن جنود البربر وعلى رأسهم سليمان حالا بينه وبين ما يريد فضلا عن أن سعى سليمان لدى أمير كتالونيا وحضه على مساعدته لاسترجاع قرطبة شغل رأي هذه الوزير

وزادت متاعبه لما وصله كتاب ذلك الأمير المسيحي يتوعده إذا هو لم ينزل له عن بلاد وحصون سماها أن يسير مع سليمان إلى قرطبة. عقد واضح مجلسا من الأمراء وكبار القوم ونظروا في الظرف المحيط بهم فاتفقوا على إجابة مطالب أمير كتالونيا ونزلوا له عن مائتي حصن وخمس بلاد وقد نجح أمير كتالونيا وحذا حذوه غيره من الأمراء وفي كل مرة تجاب المطالب دون قتال وفي هذا الظرف حاصر البربر قرطبة ستة أسابيع ثم هاجموا الزهراء ودخلوها وقتلوا جميع من بها من نساء وأطفال ورجال ثم أشعلوا النيران فأحرقوا مدينة من أجمل مدن أوربا ثم حاصروا قرطبة ومنعوا المواد الغذائية من دخولها فارتفعت أثمان الحاجيات الضرورية ومات كثير من الناس جوعًا، ومثل البربر نفس الرواية في مدن أخرى كثيرة فأصبحت الأندلس من كل الوجوه في حالة يرثى لها.

يئس واضح من أمره فأرسل إلى سليمان يطلب منه أن يقبله ضمن أعوانه، ولما علم زعماء قرطبة بما كان منه ذهب أحدهم إلى بيته وقتله وحمل رأسه على سنان رمح وطاف بها شوارع قرطبة (١٠١١) وقام علماء الدين وبثوا الغيرة الدينية في أهل حاضرة البلاد فتشجعوا وصبروا ودافعوا وانتصروا وأخيرًا انتصر البربر عليهم ودخلوا قرطبة (في أبريل سنة ١٠١٢) فسالت الدماء ونهبت البيوت وأشعلوا النيران بالقصور وفي اليوم التالي سار سليمان إلى قصر هشام وأمره بالمثول بين يديه ووجه إليه شديد اللوم على قبوله الخلافة بعد أن عهد بها إليه فاعتذر هشام وقبل سليمان عذره لوقت محدود ثم قتله سرا.

ولقد نتج عن تلك الحروب الداخلية زيادة عما تقدم من انتهاز

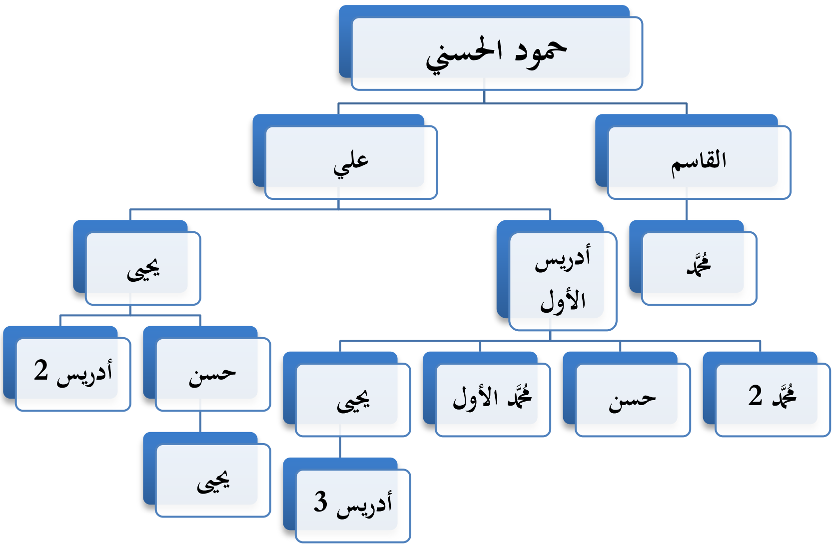
المسيحيين من هذه الحالة فرصة ثمينة وسعوا فيها بلادهم ومن نهب البلاد وتخريبها وانتشار الفوضى، أن استقلت ولايات كثيرة وانفصلت عن قرطبة وتفككت وحدة الدولة العربية بالأندلس: قام ابن عامر ببلنسية، وابن الأفطس ببطليوس وابن ذي النون بطليلطة وابن أبي البربرة تقلد باديس غرناطة، والبرز إلى قرمونة.

واقتصرت سلطة الخليفة على قرطبة وباغة وثلاث مدن أخرى.

رضي سليمان المستعين بالله بما وصل إليه وأراد أن ينعم بذلك فانصرف إلى اللهو بأنواعه واشتغل بكتابة الأشعار وترك جنده يعيثون في الأرض فسادا ففسدت دولته على صغرها وكرهه الناس وعدوه خليفة غير شرعي، نال الخلافة قهرًا بمساعدة البرابرة والمسيحيين، وقابل أمراء الولايات دعوته للدخول في طاعته باستخفاف واحتقار ودعوا في المساجد لهشام الثاني السجين ظنا منهم أنه لا يزال حيا ولم يعلموا أن سليمان قتله سرًا عقب دخوله قرطبة ومن شعر المستعين المرواني

عجبًا يهاب الليث حد سناني ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيبا ... منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسي ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن ناظري ... من فوق أغصان على كثبان
هذه الهلال وتلك بنت الـ ... مشتري حسنًا وهذي أخت غصن
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفا بهن فلست من مروان

بنو حمود



علي بن حمود (قُتل عام ١٠١٧م – ٤٠٨هـ)

القاسم بن حمود (سقط عام ١٠٢٣م)

يحي بن علي بن حمود (قتل ١٠٣٥م – ٤٣١هـ)

إدريس الأول ١٠٣٥ – ١٠٣٩

يحي بن إدريس بن علي ١٠٣٩

الحسن بن يحي بن علي ١٠٣٩ – ١٠٤١

نجاء الصقلبي ١٠٤١ – ١٠٤٣

إدريس الثاني ١٠٤٣ – ١٠٤٧

مُحَّد الأول ١٠٤٧ – ١٠٥٣

إدريس الثالث ١٠٥٣

إدريس الثاني ثانية ١٠٥٣ – ١٠٥٥

مُحَّد الثاني ١٠٥٥ – ١٠٥٧

من عقب إدريس فاس وبانيها قد أجازوا مع البربر من العدوة إلى الأندلس وفي الظرف الذي نحن بصدده كان زعيم بني حمود وأمير سبتة وطنجة على بن حمود وأخوه القاسم حاكم المدينة الخضراء، وتطلع أولهما

إلى الخلافة فاتفق مع خيران من البربر وزعيم الخارجين علي سليمان والعاملين على إعادة هشام أن يعملا معا ويعيدا هشاما إلى الخلافة إن كان لا يزال على قيد الحياة أو نقلها إلى علي بن حمود في حالة التأكد من وفاة هشام فدخلا مالقا وانضم إليهما حاكمها عامر بن فتوح فقصدوا قرطبة في جمعهم.

ولما رأى البربر من جنود سليمان شجاعة علي وحسن معاملته أحبوه وزادات قوة علي بانضمام الزاوي بن زيري إليه فأرسل سليمان الجند لمقاتلة الطامعين في الخلافة فهزموا فأمر جيشًا آخر بالذهاب إلى القتال فرفض الجند وأبوا التقدم إلا إذا قادهم سليمان بنفسه فاضطر إلى الخروج وما كاد يقترب من أعدائه حتى قبض عليه جنده وسلموه لخصومه وفي يوم الأحد أول يوليو (١٠١٦م ، ٤٠٧هـ) دخل وأنصاره قرطبة.

بحث القوم عن هشام ولما لم يعثروا عليه سألوا سليمان عنه فقال أنه مات وأشار إلى المكان الذي دفن فيه ومنه أخرجت جثة قيل أنها جثة هشام وبايع القوم عليا وهذا أمر بقتل سليمان وأخيه وأبيه أما حقيقة نهاية هشام فظلت سرًا غامضًا تضاربت فيها الآراء.

حكومة علي بن حمود الحسني

أنقذ البلاد مما كانت فيه من فوضى وأعاد إليها الأمن والنظام وأحسن معاملة شعبه وكان يسمع الشعر ويجيز الشعراء: قعد للناس وحكم في تظلمهم ومنع اعتداء البربر على أهل البلاد وعاقب من عمد إلى النهب والسلب فاستقرت له الخلافة.

غير أن خيران أراد أن يصل في عهد علي إلى ما وصل إليه المنصور

في خلافة هشام، ولما لم يفلح تآمر على خلعه واختار عبد الرحمن الرابع بن عبد الملك بن الناصر ولقبه بالمرتضى ودعا العرب لإعادة الخلافة إلى نبي أمية فلبى نداءه المنذر الهاشمي حاكم سرقسطة وسار بجيشه جنوبًا واجتمع حول المرتضى كثير من أهل الأندلس ولما علم علي بما كان أنزل جام غضبه بأهل قرطبة من العرب ثم خرج لملاقاة أعدائه غير أنه اضطر إلى العودة بسبب كثرة الأمطار، وفي صبيحة يوم تفقده قومه فوجدوه قتيلا في حمامه: قتله ثلاثة من خدمه من أتباع الأمويين واعترفوا بجريمتهم وقتلوا (١٠١٨م – ٤٠٨م).

آلت الخلافة من بعده إلى أخيه القاسم، وتلقب بالمأمون، وانتصر على جيوش المرتضى الأموي بسبب خيانة خيران والمنذر وانضمامهما إلى جانب أعداء المرتضى الذي اختاراه خليفة وذلك لعدم نزوله لهما عن شيء من سلطته، وفر المرتضى عقب هزيمته وقتل بالقرب من غرناطة واستطاع القاسم أن يعيد الأمن إلى البلاد وسار في حكمه سيرة حسنة قربت إليه القلوب وظل كذلك حتى تراءى له أن يستخدم العبيد ويجندهم ويحلهم محل البرابرة فتآمر هؤلاء عليه وأرسلوا إلى يحيى بن علي فجاء من الغرب ولما قرب من قرطبة فر القاسم مساء ١٢ أغسطس عام ١٠٢١ إلى إشبيلية، ودخل يحيى قرطبة في سبتمبر ولكنه ما لبث أن اضطر إلى الفرار فسار إلى مالقة، وعاد القاسم إلى قرطبة وصارت إليه الخلافة ثانية عام ١٠٢٣ ولكن لم يمض على عودته زمن طويل حتى ثار عليه أهل قرطبة وطردوه منها فسار إلى إشبيلية فمنعه أهلها من دخولها فسار إلى مالقة حيث أسره يحيى ثم قتله.

مؤتمر قرطبة

عقد أهل قرطبة مؤتمرًا (نوفمبر١٠٢٣) وتشاوروا في اختيار خليفة أموي ووقع اختيارهم على سليمان بن عبد الرحمن المرتضى السابق الذكر، ولكن عبد الرحمن أخا المهدي استطاع أن يجعلها لنفسه وبايعه القوم ولقب بالمستظهر، واتخذ ابن حزم وزيرًا وهو من أشهر علماء عصره وله منزلة في الكتابة رفيعة ولم تدم خلافة المستظهر طويلا ومات قتيلا بعد سبعة أسابيع من حكمه (يناير ١٠٢٤) على أثر ثورة قام بها غوغاء قرطبة بزعامة مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر، وإليه آلت الخلافة ولقب بالمستكفي وهو والد الشهيرة "ولّادة" وجعل وزارته لصديقه أحمد بن خالد النساج، ولم يكن موفقا في عمل من أعماله فهاج عليه الشعب فهرب من قرطبة متنكرًا بزي امرأة وذهب إلى الحدود حيث سمه أحد أتباعه بعد ستة عشر شهرا من بيعته، ونذكر للمستظهر شيئًا مما شغل بكتابته من الشعر:

طـــال عمـــر الليـــل عنـــدي ... مـــــذ تـــولعـــــت بصـــــدي
يا غــــزالا نقـــض العـهــــد ... ولم يــــــوف بــوعـــــــدي
أنسيــــت العهــــد أذبتـــنا ... علــــــــى مفـــــــرش ورد
ونـجــــوم الليـــــل تســــري ... ذهبـــــــا فـــــــي لازورد

النتيجة: لبثت قرطبة ستة شهور بدون خليفة، وأخيرًا اتفق أهلها على مبايعة يحيى بن علي بن حمود فقبلها وأرسل من قبله من يحكمها باسمه وأقام هو بمالقة (١٠٢٥) ثم بدا لأهل قرطبة إعادة الأمر إلى بني أمية وبايع الوزير أبو مُحَمَّد جهور لهشام الثالث بن مُحَمَّد أخي المرتضى وتلقب بالمعتمد بالله

وطلب إليه أن يأتي إلى قرطبة ولم يستطع الوصول إليها إلا بعد ثلاث سنوات لمقاومة أمراء البلاد له في طريقه، وسرعان ما أدرك أهل قرطبة أنهم أساءوا الاختيار إذا لم يكن الرجل على شيء من الكفاية وجعل أمر الحكومة في يد وزيره الحكم بن سعيد من عامة القوم، وكانت نتيجة حكم هشام الثالث أن أغضب جماعة الأمراء بسوء اختياره لوزرائه وأغضب الشعب بما فرضه من ضرائب، وأخيراً كانت المنافسة بين الحكم وابن جهور كافية لإسقاطه.

دبر ابن جهور فتنة بزعامة أمية ووعده الخلافة إذا استطاع التخلص من هشام فأجزل أمية العطايا للجند فالتفوا حوله وقتل الجند ودخلوا القصر ونهبوا حجر نسوته ورفعوا رأس الحكم على سنان رمح، ولما رأى ذلك هشام أراد أن يهدئ غضب الثوار فقابلوه بالسباب فاعتصم ببرج منيع ودخل أمية القصر وجلس على كرسي الخلافة وفاته ما كان يدور بقصر ابن جهور.

جاء ابن جهور إلى قصر الخلافة ووعد هشاما الأمان إذا ما نزل عن الخلافة فقبل فساقوه ونسوته إلى جامع وحبسوهم في قبو مظلم ثم نقلوهم إلى حصن، وأعلن مؤتمر قرطبة الذي انعقد للنظر في أمر الخلافة بقصر ابن جهور أن الخلافة قد انتهت وأن مجلسا إداريًا سيولي حكم البلاد ثم أمر ابن جوهر جند الحراس بالقبض على أمية ونفيه خارج حدود الخلافة العربية في قرطبة أما هشام فهرب من الحصن وسار إلى لاردة على الحدود حيث أقام حتى وفاته في ديسمبر (١٠٢٦ – ٤٢٨هـ)، وهكذا انتهى عصر الخلافة الأموية.

الباب الخامس

ملوك الطوائف

ويراد بهم صغار الملوك

مصير الحال:

وقد سقطت الخلافة العربية الأموية؛ قامت جمهورية في قرطبة، ومثلها في إشبيلية، واقتسم الأندلس ذوو النفوذ فيها.

(١) امتلك بنو حمود مالقه وضواحيها وكان أشهر وزرائهم الزاوي وحبوس ابن أخيه وقامت أمارات صغيرة لجند البربر في قرمونة ومورون وروندا وبداجوز (بطليوس).

(٢) استقل الصقالبة بالجهات الشرقية، وقام بأمرهم خيران ثم زهير ومجاهد جزائر البليار ولقد أغار هؤلاء القوم كثيرًا على ساردانيا وسواحل إيطاليا وكان فريق منهم يمتلك "بلنسية" حتى استخلصها عبد العزيز حفيد المنصور.

(٣) قامت دولة عربية بإقليم سرقسطة وتعرف بدولة هود.

(٤) أقام يعيش مملكة له بطليطلة وظل ملكا عليها حتى غلبه على أمره بنو ذي النون.

ما كان في قرطبة:

سبق أن أشرنا إلى قيام حكومة جمهورية بها ولقد عهد مجلس إدارتها بالسلطة التنفيذية فيها لأبي الحزم جهور بن مُحَّد بن جهور ويساعده مُحَّد بن عباس وعبد العزيز بن حسن من أقاربه فكان ابن جهور بمثابة قنصل أول وجعل لنفسه حرسا خاصا وسار في حكمه سيرة مرضية وكان لا يعمل شيئًا بدون استشارة مجلس الإدارة، أو بعبارة أخرى مجلس الشيوخ وجعل الخزانة تحت إشراف نفر يثق بهم القوم كل الثقة وحسن صلة قرطبة بالإمارات التي حولها فأدى ذلك إلى قيام الصناعة ورواج التجارة وعمل على تجديد ما خرب من مبانيها.

الحالة في إشبيلية:

كان يحكمها القاسم بن حمود وأولاده معتمدًا على جيشه من البرابرة، ورضي أهل إشبيلية به ملكًا خوفا من قسوة جنده، وظل الأمر كذلك حتى استطاع قاضي المدينة أبو القاسم مُحَّد من بني عباس أن يستميل إليه رئيس الجند ابن زيري وعندئذ أسقط أمر بني حمود وطرد أولاد القاسم منها وخلص إشبيلية من جند البربر وإذ ذاك طلب إليه وجهاء أهلها أن يقوم بالحكم فيها فقبل على أن يساعده في إدارتها بعض ساداتها، واختار لذلك ابن حجاج ومُحَّد بن يريم وأبا بكر الزبيدي وتعهد أن لا يعمل شيئًا بدون استشارتهم وموافقتهم.

قامت الجمهوررية على ما بينَّا، وكان أول اهتمام القائمين بها إعداد جيش يستطيع الدفاع عنها فجمعوا خلقا كثيرين من العرب والبربر والعبيد

وغيرهم وبهذا الجيش استطاع أبو القاسم مد حدود إشبيلية شمالا في أرض كانت للمسيحيين.

وعام ١٠٢٧ نكبت إشبيلية نكبة شديدة، وذلك أن بني حمود بقيادة خليفتهم يحيى بن علي بن حمود وبرابرة قرمونة بإمرة مُحَّد بن عبد الله حاصروها وأخضعوها ففاوضتهم حكومة إشبيلية في صلح تعترف به بالخضوع بني حمود على ألا يدخلوها وقبل يحيى ذلك وأخذ عباد بن أبي القاسم رهينة وعاد إلى بلاده ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى جعل أبو القاسم السلطة كلها في يده وعزل وزراءه واستبد بأمر الحكومة ثم فكر في الغزو والفتح فانتزع باجة من حاكمها مُحَّد بن عبد الله بن أفطس أمير بداجوز. أدى ذلك إلى عداء شديد وحرب متواصل بين إشبيلية وبداجوز واستطاع مُحَّد أن ينتقم لنفسه من إسماعيل بن أبي القاسم شر انتقام.

العصبة الأندلسية:

أثناء ذلك كان يحيى على خليفة بني حمود بمالقة يجمع البربر حوله ويعد نفسه لإخضاع العرب في إشبيلية وقرطبة وغيرها فأدرك أبو القاسم ذلك وفكر في جمع كلمة العرب وتكوين عصبة عربية تستطيع دفع الخطر الذي يهددهم من بني حمود والبرابرة ووصل إلى ذلك بحيلة احتالها:

وجدَّ أن القوم كانوا لا يزالون يعتقدون أن هشام الثاني لا يزال حيا وأنه عاد إلى الأندلس فاستدعى إلى إشبيلية شخصًا كان يشتغل بصناعة الحصير يدعى خلفا يظنه من رآه هشاما، وأعلن وجود الخليفة الأموي بإشبيلية ودعا القوم إلى حمل السلاح وإعادته إلى عرش الخلافة فاعترف به

مُحَّد بن عبد الله السابق الذكر وعبد العزيز أمير بلنسية ومجاهد أمير دانة وجزر البليار واضطر أبو الحزم بن جهور رئيس حكومة قرطبة أن يصدق الرواية ويعترف بالخليفة المزيف وأخذ البيعة للرجل على أهلها في نوفمر سنة **١٠٣٥**.

وأما يحيى فقد رأى ألا يتباطئ في أمره فأغار على إشبيلية ونهب ضواحيها وخربها غير أن بعض جنده خانوه ودخلوا إشبيلية سرًا وأطلعوا أباب القاسم على مكان الضعف من سيدهم وأنه يسهل أمره إذا أخذ على غرة فخرج ذات ليلة إسماعيل بن أبي القاسم ومعه مُحَّد بن عبد الله وباغتا يحيى فخرج للقائهم فهزم وقتل وفر أتباعه ودخل مُحَّد بيت يحيى وسبا نساءه سنة **١٠٣٥**.

ولما مات يحيى انتقلت خلافة بني حمود إلى إدريس أخي يحيى، ولكنه لم يقو على الخروج لمقاتلة أعدائه بسبب ضعف قوته الحربية بسبب خروج ابن عمه مُحَّد عليه واستقلاله بالجزيرة الخضراء وتطلعه إلى خلافة بني حمود فأراد أبو القاسم أن يأخذ من هذه الحال فرصة لإتمام حيلته فسار إلى قرطبة ومعه خلف ليجلسه على عرش الخلافة، ولما وصلها وجد أبوابها موصدة بأمر ابن جهور الذي أبان لأهلها حيلة أبي القاسم فصدقوه وأغلقوا أبوابها فعاد أبو القاسم من حيث أتى ولما وصلها فكر في أمر زهير أمير المرية وكان قد رفض الخضوع للخليفة الجديد وأزر بني حمود واعترف بخلافة إدريس: قرب أبو القاسم من المرية فاستنجد أميرها بجيوش أمير غرناطة فأرسل عليه جيشًا فاستطاع هزيمة أبا القاسم وصده فعاد إلى إشبيلية ثانية وهو يتوقع سير جيش المرية وغرناطة إلى إشبيلية، ولكن

شاءت الظروف أن توجد بين الحليفين شقاقًا أدى إلى قتال بينهما وقتل زهير في المعركة وأسر وزيره ابن عباس وظل سجينًا حتى قتله باديس بن حبوس، وكان قد آل إليه ملك غرناطة بعد وفاة أبيه حبوس. وبذلك نجت إشبيلية من خطر كان يهددها على إزالة زهير من طريق العصبة العربية، وإذا ذاك وقد خلت ألمرية من أميرها دخلت في طاعة عبد العزيز أمير بلنسية.

ظن أبو القاسم من الحوادث السابقة أنه أصبح في مأمن من أعدائه وأنه يستطيع إخضاع قرمونة وكان أميرها مُحَّد بن عبد الله خرج عليه فأرسل إليه ابنه إسماعيل فحاصرها فاستنجد مُحَّد بإدريس خليفة مالقة وبباديس أمير غرناطة فسارا إليه وهزماه وقتل إسماعيل في القتال وعاد باديس إلى غرناطة وقتل أبا الفتوح وكان من أهل العلم والأدب بتهمة تآمره مع يزيد بن عم باديس على خلعه، ولا شك أن أبا القاسم رئيس حكومة إشبيلية كان له يد في تدبير هذه المؤامرة (أكتوبر ١٠٣٩):

الحال في مالقة – مملكة بني حمود:

أصبح خلفاء بني حمود على ضعف شديد واكتفوا من الخلافة باللقب وتركوا الأمر لوزرائهم وحاولوا أن يظهروا للقوم أن حكومتهم في مالقة وطنج وسبته تقوم على أساس متين وينتشر الأمن بين ربوعها غير أن اختلاف الجنسيات بها أدى إلى التنافس والكراهة والشحناء وظهرت في البلاد مظاهر الضعف التي أدت بملك بني أمية إلى السقوط ولقد ظهر الانقسام جليا عقب وفاة إدريس الأول.

رشح زعيم البربر ابن بقانة الأمير يحيى بن إدريس الأول فعارضه نجاء الصقلبي وطلب أن تؤول الخلافة إلى الحسن بن يحيى ابن عم الأمير المذكور وجاء به من المغرب إلى مالقة في عدد عظيم من الجند وعندئذ فر ابن بقانة ومعه يحيى بن إدريس ودخل الحسن مقالة وأخذ الخلافة لنفسه ثم عفا عن ابن بقانة وزميله يحيى بن إدريس ولما عادا غدر بهما وقتلهما ولكنه لم يلبث طويلا حتى قتلته أخت يحيى الأمير المقتول بأن دست له السم في طعامه فأصبحت السلطة كلها في يد نجاء، وهذا لم يتردد في قتل أحد ولدي الحسن وسجن الولد الثاني وطلب إلى جموع البربر الخضوع لسلطانه فأقسموا يمين الطاعة ظاهرا وصمموا في أنفسهم على الانتقام من قاتل شخصين من نسل النبي صلَّى الله عليه وسلم، وانتظروا فرصة تمكنهم من غرضهم.

لم يصل نجاء إلى معرفة ما كان يدور بخلد جنده فأراد أن يخضع محمدًا أمير الجزيرة الخضراء فسار إليه ولكنه اضطر إلى العودة لما تبين له ممالاة جنده لأعدائه وفي طريقه إلى مالقة انقض عليه الجند وقتلوه "فبراير ١٠٤٣" ولما علم أهل مالقة بما كان أخرجوا إدريس أخا الحسن ابن يحيى من السجن وفي بداية أمره سار على خطة العباسيين في بعض مظاهر الخلافة فكان يكلم رجال دولته ووجهاء قومه وشعراءهم من وراء ستار حتى أنشد أبو زيد عبد الرحمن قصيدة منها:

وكأن الشمس لما أشرقت ... فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيى بن علي ... بن حمود أمير المؤمنين

خلقـوا مـن مـاء عـــدل وتـقـــا   وجميـع النـاس مـن مـــاء وطـين

وفي آخرها:

انظـرونا نقـــتبس مـــن نـوركـــم   إنَّـه مـن نـــور رب العالميـــــــن

وهنا أمر صاحبه أن يرفع الحجاب وأمر له بإحسان جزيل.

ولكن الملك كان يتطلب قوة الإرادة بجانب ما كان لإدريس الثاني من صفات ولكن إدريس خلا من هذه المنطقة كلية وليس أدل على ذلك مما يروى أن باديس ملك غرناطة طلب إليه أن يرسل إليه وزيره وقد كان أغضبه فقال إدريس لوزيره: "إنه ليحزنني أن أطلب إليك أن تسير إلى باديس" فسار الرجل وقتل.

نقم عليه جنده بسبب ضعفه هذا وحدث أن خرج عليه أحد عماله وأخرج محمدًا بن عم إدريس الثاني من السجن فدعاه الجند في مالقة إلى المجئ إليها واعتلاء الخلافة ولقد أراد أهل مالقة من غير الجند مساعدة إدريس الثاني ولكنه رفض مساعدتهم وجاء مُحَمَّد بن إدريس بن علي ودخل مالقة وأخذ الخلافة وقبض على إدريس الثاني وأودعه السجن.

وصلت بالخليفة الجديد شجاعته إلى حد الجنون وطلب من جنده خضوع وعقاب كل من خرج على النظام أشد عقوبة؛ فكرهه القوم ودبروا مؤامرة غرضها إخراج إدريس الثاني من السجن وإعادته إلى الخلافة، ونجحوا في الجزء الأول من غرضهم فقط وأرسلوه إلى إفريقية حيث بايعه القوم بالخلافة الاسمية، ودعوا له في الجوامع، ثم خاف حاكم طنجة نتيجة وجوده ببلاده فأرسله ثانية إلى الأندلس وأقام بمدينة روندا في ظل أحد

حكامها من البربر.. وخلاصة القول أصبح هناك أربعة خلفاء: هشام الثاني المزيف، ومُحَمَّد في مالقة، ومُحَمَّد بالجزيرة الخضراء مقر خلافته الوهمية وفر إلى المغرب ومات عقب وصوله (١٠٤٨)، وبعد ذلك بخمس سنوات مات مُحَمَّد خليفة مالقة وعاد إليها إدريس الثاني وحكمها حتى وفاته في ١٠٥٥ وعندئذ ضم باديس ملك غرناطة إقليم مالقة إلى بلاده وأخرج منها من بقي من نسل بني حمود، وبذلك انتهى تاريخهم من بلاد الأندلس.

في إشبيلية:

المعتضد بن أبي القاسم:

مات أبو القاسم قاضي إشبيلية ورئيس حكومته في يناير ١٠٤٢ فقام بعده ابنه عباد ولقب بالمعتضد وحكم إشبيلية باسم هشام الثاني المزيف، وكان كفئا للوقوف أمام خصمه باديس وجها لوجه: كان قاسيا شريرًا ظالمًا يحب الترف والملاذ جعل في قصره ثمانمائة من النساء ومع هذا كان على شيء من التعليم والثقافة شجع العلم والأدب وأقام القصور. توصل إلى أغراضه بمكره وغريب حيله لم يكتف بقتل خصومه بل جعل من جماجمهم أوعية للنباتات ذات الأزهار وضعها في حديقة قصره وعلق بها أوراقا تحمل أسماء أصحابها.

حروب المعتضد:

بدأ المعتضد حياته السياسية بقتل حبيب وزير أبيه ثم قاد الجنود إلى قرمونة وغزاها (١٠٤٢ – ١٠٤٣) ثم مد حدود بلاده غربا في أملاك بعض أمراء العرب مما جعل المظفر أمير بداجوز يكون حلفا من باديس

ملك غرناطة ومُحَمَّد الخليفة في مالقة ومُحَمَّد حاكم الجزيرة الخضراء لمقاتلة المعتضد، وعبثًا حاول أبو الوليد بن جهور رئيس حكومة قرطبة أن يتوسط في الصلح، وقامت الحرب وانتصر المعتضد على جيش المظفر في معركة حاسمة بالقرب من قرمونة وأخيرًا قبله ابن جهور.

وقد نجح المعتضد في توسيع بلاده من الجهة الغربية فكر في أمر الجنوب حيث البربر ورسم خطة قاده إليها مكره وخداعه: زار تلك الأقاليم (رواندا ومورونا) ووقف على مقدار كراهة العرب في هذه البلاد لحكامهم البربر فشجعهم على ذلك وأمدهم بالأموال، ثم عاد إلى إشبيلية وأرسل إلى أمراء البربر نفيس الهدايا فوثقوا منه ثم دعاهم إلى وليمة بإشبيلية فجاءوا ولاقوا حتفهم وعنئذ سهل على جنده فتح تلك البلاد وتحصينها.

أثر ذلك:

غضب باديس ملك غرناطة لما أصاب إخوانه البربر في الجنوب وزاد من غضبه تلك الوحشية التي قتل بها العرب أعداءهم وخاف أن يتآمر العرب في غرناطة على قتله فصمم على إبادتهم ولم يفلح وزيره صمويل في أن يرجعه عن عزمه فدعا الجند لحمل السلاح والاستعداد وحدد يوم الجمعة لاستعراضهم وأراد بذلك أن يهاجم العرب في جوامعهم فخاف صمويل العاقبة وأخبر زعماء العرب بما يدور في نفس باديس وطلب إليهم ألا يحضروا الصلاة في ذلك اليوم وفشل تدبير باديس، غير أنه رأى أن يعاقب إشبيلية على ما كان منها فسار إليها ودار القتال ولم يعرف عن أمره سوى أنه كان حاميًا وانتهى بارتداد باديس مغلوبا.

تشجع المعتضد بهذا النصر فسار إلى الجزيرة الخضراء وأجبر حاكمها مُحَمَّد بن القاسم بن حمود على قبول الصلح والخروج منها إلى قرطبة (١٠٥٨) ولما عاد إلى إشبيلية وضع حدًا لتلك المهزلة التاريخية التي بدأ تمثيلها أبوه أبو القاسم فجمع وجهاء إشبيلية ووزراءها وأعلمهم بوفاة هشام الثاني (المزيف) (١٠٥٩) ونشر الخبر في أنحاء الأندلس ثم دعا العرب عامة إلى اختيار خليفة آخر وكان طبيعيا ألا يتفقوا على شخص أن تؤول إليه إمارة الأندلس فكان لا بد له من إخضاع قرطبة ودخولها.

بدأ غاراته على ضواحي قرطبة ثم أمر ابنه إسماعيل أن يحتل إطلال الزاهرة فتباطأ هذا في تنفيذ أمر أبيه ثم رفض المسير وكان يريد أن يتقل بإحدى الإمارات كالجزيرة الخضراء أو غيرها وفعلا حاول الوصول إلى غرضه ولكنه لم يفلح وأخيرًا قتله أبوه بيده، وكان لهذه الحادثة أثر شديد في نفس المعتضد أنساه مطامعه في إمارة الأندلس وحروبه مع قرطبة.

الحرب بين إشبيلية ومالقة:

قام العرب بمالقة بثورة داخلية يريدون التخلص من حاكمهم المستبد باديس وسار المعتمد بن المعتضد على رأس جيش إلى مالقة لمساعدة الثوار (على حسب خطة مرسومة من قبل) ولم يمض أسبوع حتى سقطت الولاية كلها في أيدي الثوار وجند إشبيلية ما عدا العاصمة لمناعة حصونها واستماتة العبيد في الدفاع عنها، ولقد كان من نتائج هذا النصر السريع أن أهمل المعتمد أمر جنده وسمح لهم بالراحة وتناول الشراب فانتهز باديس هذه الفرصة وفاجأ أعداءه وهزمهم وطردهم من البلاد واسترجع مملكته

بأكملها وفر المعتمد إلى روندا وانتقم باديس من الثوار أشد انتقام ومات صمويل عقب هذا الحادث وخلفه في الوزراء ابنه يوسف فأساء إلى جميع الأجناس من عرب وبربر ويهود فثار عليه البربر وقتلوه في (ديسمبر ١٠٦٦).

الحال في شمال الأندلس:

لبث الشقاق قائمًا بين المسيحيين في الشمال نصف قرن وحوالي عام **١٠٥٥** هدأت الحال بينهم وظهر فرناندو الأول ملك قشتالة وليون، وتبين حالة المسلمين وانقسامهم في الأندلس؛ فقاد المسيحيين وانتزع بداجوز من المظفر ودخل سرقسطة واحتل الحصون الواقعة جنوبي ألدورو، وأغار على طليطلة فذهب المأمون حاكمها إلى فرناندو وقدم له الهدايا واعترف بالخضوع وقبل دفع الجزية (تغير الموقف وأصبح المسلم يدفع الجزية للمسيحي).

وفي (١٠٦٣) دخل فرناندو إقليم إشبيلية فتقدم إليه المعتضد يحمل أثمن الهدايا وتوسل إليه أن يخرج من إشبيلية فقبل على أن يدفع المعتضد الجزية ويسمح بنقل رفات قديس إلى الشمال (سانت جوستا) وتم الاتفاق على ذلك وخرج المسيحيون من إشبيلية.

وفي (١٠٦٢) نكب المسلمون نكبة مؤلمة: سقطت كويمبرا في يد فرناندو وقتل خمسة آلاف من الأسرى وأمر المسلمين المقيمين جنوبي نهر الدور بالرحيل ثم حاصر بلنسية وقتل رجالها وفر ملكها عبد الملك بن عبد العزيز وحدث أن أغار في هذا الظرف جماعات النورمانديين على شمال

شرقي الأندلس بقيادة جويليوم وقتلوا كل من وقف في وجوههم محاربًا كان أو أسيرًا أو مسالمًا ووزعت بيوت المسلمين بما فيها من متاع ونساء على جند الفاتحين الذين ارتكبوا أفظع الجرائم ثم عادوا إلى بلادهم.. وما كادوا يخرجون من بلنسية حتى دخلها فرناندو ثانية، ولكنه مرض واضطر إلى العودة، وهنا ضم المأمون بلنسية إلى طليطلة وفي ديسمبر ١٠٦٥ مات فرنادندو وفي فبراير ١٠٦٩ مات المعتضد وكان قد أدرك ما سيكون من دخول المرابطين الأندلس وخلفه ابنه المعتمد.

المعتمد

عاش المعتمد في عهد أبيه عيشة سعيدة هادئة ينعم بأسباب الهناءة جميعها وزاد من سعادته تعرفه بابن عمار أبي بكر فكان في زمن صباه صاحبه واكتملت تلك السعادة في نظره بزواجه الرميكية الملقبة باعتماد، ومر بنا ما كان من موقفه في مقابلة باديس ولما مات أبوه وآلت إليه إمارة إشبيلية جعل ابن عمار وزيره.

وفي زمنه أصبحت إشبيلية كعبة فحول شعراء الأندلس وكان المعتمد نقادًا فأجزل العطاء لمن أجاد، وقصته مع كبير اللصوص الصقر الرمادي تدل على تقديره مواهب الرجال حتى في حالات الإجرام وكان يميل كثيرًا إلى الشراب بين الغانيات فجمع منهن في قصره الكثيرات نذكر منهن أرماندا الفاتنة ولونا (قمر) وكانت مهمتها أن تحول بينه وبين أشعة الشمس إذا وصلت إليه وهو يقرأ الشعر الجاهلي وكان كثير الخضوع والتذلل لمرغريت وحدث أن مرض مرة فقامت بتمريضه ممرضة تدعى فاي؛ فودَّ لو

يقضي بقية حياته مريضًا حتى لا يحرم التمتع بجمالها.

غير أن ذلك لم يقعده عن الاشتغال بأمر ملكه وقد مكنته الظروف من الاستيلاء على قرطبة واعترفت به أميرًا عليها ونفى عبد الملك أبي الوليد ابن جهور آخر حكامها من بني جهور وجعل ابنه عبادا (ابن الرميكية) أميرا عليها وهذا استعان بمحمد بن مارتين قائد حرسه، وسلَّمه زمام الأمور فاستبد بالقوم فكرهوه، وما لبث أن طمع المأمون أمير طليطلة في إمارة قرطبة فاستنجد بألفونس وهاجمها ولكنه صد عنها ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى قام ابن عكاشة وتآمر مع غوغاء قرطبة، وفي ليلة عاصفة في شهر يناير **١٠٧٥** قام بثورة وهاجم قرطبة في جامعها وأخذ عليهم الولاء للمأمون واستدعاه من طليطلة فدخلها وبعد ستة أشهر من إقامته فيها مات مسموما بإيعاز من ابن عكاشة، وذلك لأن كلا منهما أراد أن يتخلص من صاحبه (**١٠٧٥**)

وفي سبتمبر **١٠٧٨** انتقم المعتمد لنفسه ودخل قرطبة وقبض على ابن عكاشة وقتله وصلب جثته ثم فتح ما بين قرطبة وطليطلة.

المعتمد وألفونس الرابع:

جاء ألفونس الرابع في جيش كبير إلى إشبيلية ليأخذ الجزية المفروضة عليهم؛ فعمَّ الخوف والفزع فاعتمد بن عمار على مكره وقوة حيلته ليدفع عن البلاد ما أحاط بها فذهب إلى معسكر ألفونس يحمل شطرنجًا بديعًا فلما رآه ألفونس ودَّ لو يحصل عليه ليفخر به على ملوك الفرنجة فقال له ابن عمار: "لكَ أن تأخذه إذا غلبتني وإذا غلبتك سألتك شيئًا واحدًا"..

"وما عساك تطلب؟".. "تعرف ذلك إذا انتهينا من المباراة" وبعد تردد قبل ألفونس وغلب على أمره. "وقد قبلت الشرط أطلب إليك الآن أن تخرج من أرضنا" فخرج، ولكنه ضاعف الجزية على إشبيلية وقرطبة، وعقب ذلك استطاع ابن عمار أن يضم مرسية إلى أملاك إشبيلية ودخلها في موكب حافل وظهر بمظهر ملوك البلاد فأوقع حساده بينه وبين المعتمد وما لبث أن تحول كل عن صاحبه وأظهر له عداءه وأخيرًا اضطر بن عمار إلى الفرار من مرسية وسار إلى ليون ثم إلى سرقسطة ثم أسره بنو سهيل وباعوه للمعتمد هذا وسجنه ثم قتله بيده وكانت نهاية ابن عمار حديث عامة القوم حتى شغلهم عن ذلك ما كان من أمر طليطلة وجيوش قشتالة.

ألفونس الرابع ومعركة الزلاقة:

أصبح ألفونس الرابع ملكا على ليون وقشتالة وجليقية ونافارا، وصمم على فتح الأندلس كلها بعد أن ملأ خزائنه بما فرض من جزية على مختلف الإمارات العربية فحاصر طليطلة (١٠٨٠) ثم أرسل رسله إلى إشبيلية يطلبون الجزية المفروضة فحملها أبو بكر بن زيدون[٥] إلى اليهودي (شليب) الذي رفضها لوجود نقود مزيفة فيها وقال: "أطلب ذهبًا خالصًا هذه السنة والسنة القادمة أطلب إليكم تسليم المدن" فقادوه إلى المعتمد فأمر بصلبه وواصل سيره جنوبًا حتى بوغاز جبل طارق ثم عاد إلى طليلطة (١٠٨٢) واغتصب أموال أهلها وخربها ودخلها بنفسه في مايو ١٠٨٥ ومن ثم أصبح مسيطرًا على أمراء العرب أجمعين ولقب نفسه بملك

[٥] ابن أبي الوليد أحمد بن زيدون الشاعر.

المسيحيين والإسلام.. هذا وقد استطاعت جيوشه الاستيلاء على بلنسية ومحاصرة سرقسطة وألمرية وغرناطة، وفي هذا الظرف رأى أمراء العرب أن يستنجدوا بأهل إفريقية وكانت إذ ذاك دولة المرابطين قائمة بها وإلى ملكهم يوسف ابن تاشفين سار وفد من قضاة غرناطة وبداجوز[٦] وقرطبة ومعهم الوزير أبو بكر بن زيدون.

---

[٦] بطليوس.

الباب السادس

المرابطون من الملثمين من البربر في إفريقية

كان المرابطون من البربر من صنهاجة قبل الفتح الإسلامي متوطنين في القفار وراء رمال الصحراء ما بين بلاد البربر والسودان في جملة قبائل صنهاجة على دين المجوسية قد اتخذوا اللثام شعارًا يميز بينهم وبين غيرهم من الأمم والرياسة فيهم يومئذ، ولم يزالوا على ذلك إلى أن كان الفتح الإسلامي للأندلس واستمر ملكهم أيام عبد الرحمن أول خلفاء بني أمية بالأندلس.

ملوك المرابطين:

أول من ملك منهم الصحراء بتلوثان، وكان يركب في ألف نجيب وتوفي عام ٢٢٢هـ وملك بعده بلثان وتوفي ٢٨٧هـ ابنه تميم إلى ٣٠٦هـ ثم افترق أمرهم ١٢٠ عامًا إلى أن قام فيهم أبو عبد الله بن تتفاوت وحج ومات لثلاثة أعوام من رياسته وقام بأمرهم من بعده صهره يحيى بن إبراهيم وحج وعاد وصحبته عبد الله بن ياسن الجزولي ليعلمهم الدين وهو الذي سماهم المرابطين وجعل أمرهم في الحرب إلى الأمير يحيى بن عمر، ففتحوا درعة وسجلماسة، ومات يحيى بن عمر عام ٤٤٧هـ وولي مكانه أخوه أبو بكر بن عمر ثم افتتحوا بلاد السوس (٤٤٨هـ) ثم مدينة أغمات ٤٤٩هـ ثم بلاد المصامدة ٤٥٠هـ وفي هذه السنة مات عبد الله بن ياسين

واستمرت أمارة أبو بكر وفتح مدينة لواتة (٤٥٢هـ) ثم ارتحل إلى الصحراء لجهاد السودان واستعمل على المغرب بن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم فسار يوسف في عسكره من المرابطين ودوخ أقطار المغرب واختط مدينة مراكش ٤٥٤هـ ثم انتزع جبال زناتة ثم تلمسان واستولى على الغرب الأقصى والغرب الأوسط.

يوسف ين تاشفين بالأندلس

قبل يوسف رجاء الأندلسيين وسار إلى الجزيرة الخضراء في مائة سفينة تنقل جنده، ولما وصلها خرج الراضي بن المعتمد من المدينة وقص يوسف إشبيلية وخرج المعتمد للقائه يحمل أثمن الهدايا وهناك جاء له ملك غرناطة وملك مالقة حفيدا باديس وأرسل المعتصم أمير ألمرية جيشًا وسار الجميع إلى بداجوز ثم إلى طليطلة.

كان ألفونس الرابع إذ ذاك يحاصر سرسقطة فرفع حصارها وسار لملاقاة العرب وقابلهم عند الزلاقة (على مقربة من بداجوز) وقبل بداية القتال تبادل القائدان المراسلات فكان جواب يوسف (الجواب ما ترى لا ما تسمع) وحدد يوم الإثنين ٢٦ أكتوبر سنة ١٠٨٦ لبداية القتال وكان المسيحيون في ٥٠ ألف، والمسلمون دون العشرين ألف. ولكن العرب صبروا وقاتلوا، وكان يوسف يسير بين المقاتلين ويحثهم على الثبات، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وفر ألفونس في خمسمائة من رجاله.

عقب ذلك النصر اضطر يوسف إلى العودة إلى إفريقية بسبب وفاة ابن له وترك أربعة آلاف من جنده تحت إمرة المعتمد، والآن نذكر نتائج

تلك المعركة:

- خرج المسيحيون من بلنسية ورفعوا الحصار عن سرقسطة بعد أن فقدوا عشرين ألفا من رجالهم.
- استرجع ملوك الأندلس من العرب حريتهم وتخلصوا من دفع الجزية.
- احتلت جند يوسف غرب الأندلس وظل الشرق يخشى بأس المسيحيين.
- ورغم ذلك لم يستفد ملوك العرب الفائدة المطلوبة فظلوا أضعف من أن يدفعوا خطر المسيحيين عن أنفسهم.

يوسف بالأندلس ثانية

نشط المسيحيون عقب خروج يوسف من الأندلس فأغاروا على بلنسية، مرسية، وألمرية.. وكثيرًا ما حاصروا قواعد تلك الإمارات، ثم بنوا لأنفسهم حصنًا منيعًا في اليد وأصبحوا يسيطرون عليها، وحاول المعتمد صدهم فهزموه عند لورقة فصمم على استدعاء يوسف ثانية حتى لا يكتسح المسيحيون البلاد وسار إليه بنفسه، وقبل يوسف رجاءه ونزل بالجزيرة الخضراء في ربيع ١٠٩٠ وانضم إليه المعتمد وتميم ملك مالقة وعبد الله ملك غرناطة والمعتصم أمير ألمرية وابن رشيق حاكم مرسية وحاصروا حصن أليدو، ولكنهم لم يستطيعوا انتزاعه بسبب تقصير ملوك الأندلس في القتال، وذلك أنهم تبينوا أن يوسف يريد إخضاع الأندلس لنفسه هذه المرة وكان عامة الشعب والفقهاء يشجعون على ذلك، ولكن الأمراء والشعراء كرهوا أن تصير البلاد إلى المرابطين، وأخيرًا آثر القوم

الخضوع للمرابطين على دفعهم الجزية للمسيحيين ولما أفتى الفقهاء (أبو جعفر قاضي غرناطة) بحق شرعي ليوسف في امتلاك البلاد عمل على إدراك غرضه وساعده على ذلك انقسام الأمراء على أنفسهم على الظرف الحرج الذي أحاط بهم، وبينما هم في موقفهم هذا حول حصن أليدو علموا بقدوم ألفونس في ١٨ ألف فخاف يوسف عاقبة القتال فسار للورقة، وخلص ألفونس المحاصرين لما علم بذلك ملكها عبد الله حاول أن يستنجد بألفونس فلم يفلح فجند عددا من الصناع ولكن نصيحة رجاله وخوفه جعلاه يخرج لملاقاة يوسف والترحيب بقدومه، وما كاد يصل حتى أمر به يوسف فكبل في الأغلال ودخل يوسف غرناطة واستولى على ما فيها من ثمين التحف النادرة من ياقوت وزمرد ولؤلؤ وماس وآنية من ذهب وفضة.

وقدم عليه المعتمد والمتوكل لتهنئته بظفره وأرسل المعتصم ابنه عبد الله لهذا الغرض فقابلهم يوسف، ويستنجدون بألفونس إذا دعت الحال، وإذ ذاك رأى يوسف أن يعود إلى إفريقية فسار جنوبا واستولى على مالقة وأبحر من الجزيرة الخضراء وترك إخضاع الأمراء أو صغار الملوك إلى قواده مستعينًا على ذلك بفتوى أصدرها فقهاء الأندلس ووافق على صحتها فقهاء المغرب وأيدها كبير فقهاء الشرق "الغزالي".

استيلاء المرابطين على البلاد:

سار جيش من جندهم إلى ألمرية وحاصرها وتقدم جيش آخر إلى قرطبة واستولى عليها بعد أن دافع عنها الفتح بن المعتمد وقتل في ميدان القتال سنة ١٠٩١ ثم سقطت قرمونة في أيديهم وما لبثوا أن حاصروا

إشبيلية وهزموا المسيحيين الذين جاءوا لنصرتها وعندئذ يئس المعتمد من أمزه ووكل أمر الدفاع عنها إلى ابنه الرشيد ولكن رغم شجاعة المعتمد واستبساله في الدفاع سقطت إشبيلية في سبتمبر سنة ١٠٩١ ووصل المرابطون في النهب إلى أن جردوا القوم من ثيابهم وأخيرًا سلم المعتمد وابنه الرشيد بدون شرط ثم سلمت روندا حاكمها الراضي بن المعتمد وغدر به القوم وقتلوه ثم دخلوا بداجوز وقتلوا المتوكل وولديه الفضل والعباس..

أثناء ذلك كانت جبوش المرابطين بشرق الأندلس تمكنت من دخول ألمرية ومرسية ودانية وسقطت بلنسية سنة ١١٠٢ ومات يوسف ١١٠٧ حوالي ٥٠٠هـ وآل ملك الأندلس إلى ابنه علي، وفي سنة ١١١٠ سقطت سرقسطة، وبذلك تم للمرابطين إخضاع الأندلس الإسلامية وحكمها علي بن يوسف حتى ١١٤٣م : ٥٤١هـ ثم حكمها من بعده ابنه تاشفين وبويع بمراكش ولما ألفوه عاجزا خلعوه سنة ١١٤٥م – ٥٤٣هـ وولوا مكانه عمه إسحق بن علي بن يوسف، وكان الموحدون قد ملكوا جميع بلاد المغرب، وقصدوه في مراكش فخرج إليهم في خاصته فقتلوه وأجاز عبد الملك والموحدون إلى الأندلس فملكوه سنة ٥٥١هـ وفر أمراء المرابطين في كل وجه.

حكومة المرابطين في الأندلس:

صار لرجال الدين الكلمة الأولى في حكومة البلاد وفاق الكل في سلطته ابن حمدين قاضي قرطبة، وفي هذا العصر كاد الأدب يندثر وحرم على القوم الاشتغال بالعلوم الفلسفية فتركها مالك بن وهيب من الباحثين

فيها مخافة العقوبة وأمر قاضي قرطبة بإحراق كتاب الأحياء للغزالي، وتُركت سياسة التسامح الديني، وفكر أحد الفقهاء في إجبار اليهود على اعتناق الإسلام فاشتروا حرية الدين والعبادة بكثير أموالهم وأفتى العلماء بتهديم الكنائس فأدى ذلك إلى خروج ألفونس لمقاتلتهم، واستمر القتال سنة، وقد واصل ألفونس النهب والتخريب حتى قرطبة ولما عاد قتل المسلمين المسيحيين فنزح إلى الشمال نحو العشرة آلاف منهم.

أما من الوجهة الاقتصادية فكانت البلاد على حالة طيبة في عصر يوسف وبداية عصر ابنه علي ولم يرهقوا القوم بضرائب استثنائية، وإذا نظرنا فيما كان بينهم وبين المسيحيين من قتال فنجد أنهم لم يحققوا ما انتظره القوم منهم إذ أنهم لم يصلوا في انتصاراتهم على المسيحيين إلى ما وصل إليه عبد الرحمن الثالث، أو الحكم الثاني أو الوزير المنصور زيادة على أن فرصة حسنة قد أتيحت لهم عقب وفاة ألفونس، وما كان من انقسام المسيحيين على أنفسهم، ولكنهم أغفلوا تلك الفرصة وعبثا حاولا الاستيلاء على طليطلة واسترجاع سرقسطة وأخيرًا أخذت الحالة العامة في التدهور، ويرجع ذلك إلى ما انغمسوا فيه من الترف والملاذ وأظهر الجند العصيان وتدخل النساء في إدارة البلاد (قمر زوجة علي) وطمع أمراؤهم في ملك الأندلس.

في ١١٢١م – ٥١٥هـ قام الموحدون بالمغرب بزعامة المهدي مُحَمَّد بن تومرت وعملوا على إسقاط دولة المرابطين فاستنجد المرابطون بالمغرب بإخوانهم بالأندلس فخرجوا منها وكان خروجهم أحسن فرصة للمسيحيين فأغار ألفونس السابع (١١٣٣) على قرطبة وإشبيلية ووصل إلى قادش وفي سنة ١١٤٣ أعاد غاراته وفي ١١٤٤ تم للمسيحيين إخضاع الأندلس

الإسلامية وعندئذ أشار الفقهاء على القوم أن يهبوا ويستأصلوا ما بقي من المرابطين بالبلاد.

الموحدون في إفريقية والأندلس

في إفريقية:

كان أول أمرهم أن المهدي مُحَمَّد بن تومرت كان إماما متضلعا في العلوم قد حج ودخل العراق واجتمع بأئمته من العلماء والنظار كالغزالي والهراسي وغيرهما، وأخذ بمذهب الأشعرية أهل السنة ورجع إلى الغرب وأهله يومئذ على مذهب أهل الظاهر في منع التأويل فاجتمع إليه قبائل المصامدة من البربر وجعل يبث فيهم عقائد الأشعرية وينهي عن الجمود على الظاهر وسمى أتباعه الموحدين تعريضًا بتكفير القائلين بالتجسيم الذي يؤدي إليه الوقوف على الظاهر وبايعه القوم على ذلك سنة ٥١٥هـ ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي، وكان يلقب بالإمام وأخذوا في قتال المرابطين من لمتونة حتى استقاموا على الطاعة، وتوفي المهدي سنة ٥٢٢هـ بعد أن استولى الموحدون على الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط. قام بعده عبد المؤمن بن علي أحد أصحاب المهدي والخليفة بعده، وبعث العساكر إلى إفريقية (تونس) مع ابنه عبد الله (٥٤٧هـ) فافتتحها واستكمل فتحها ٥٥٦هـ وصارت دولة الموحدين إلى بني أبي حفص بإفريقية وهو من أصحاب المهدي بن تومرت.

الموحدون في الأندلس:

دخل المرابطون الأندلس والشقاق قائم بين أمراء الأندلس وخطر

المسيحيين يهدد البلاد ويؤذن بسقوطها في أيديهم فأقام المرابطون ما أقاموا وخرجوا وتركوها فعادت إلى ما كانت عليه قبل دخولهم، وكل هذه العوامل من التنازع بين الأمراء ونهضة المسيحية ودخول المرابطين ثم استيلاء الموحدين على البلاد أدلة كافية على أن زوال أيام الإسلام بالأندلس قريب.

بعد أن تم للموحدين انتزاع ملك المرابطين بإفريقية فكروا في الاستيلاء على الأندلس فنزلوا الجزيرة الخضراء واستولوا عليها ١١٤٥م ودخلوا إشبيلية ثم مالقه (١١٤٦) وسقطت قرطبة في أيديهم وتم لهم إخضاع الجنوب (١١٥٠) وقد سهل عليهم إخضاع البلاد بعظيم جيوشهم ولكنهم لم يستطيعوا تقوية دعائم ملكهم لانشغالهم بأمر المغرب والاكتفاء بإرسال من ينوب عنهم في حكم البلاد وصد غارات المسيحية ولذلك كثيرا ما ظهر الضعف في حكومتهم وولي الأمر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف وأجاز إلى الأندلس وكان له انتصارات على المسيحيين وولي بعده ابنه يعقوب المنصور وكانت له في النصارى بالأندلس نكاية كبيرة ومن أعظمها غزوات الأراك (٥٩١هـ – ١١٩٥م) بالقرب من بداجوز وهي تضاهي واقعة الزلاقة أو تزيد، وفيها قتل من المسيحيين آلاف وغنم الموحدين غنائم لا تحصى من خيام وخيل وبغال وحمير وجواهر وأموال، وبلغ عدد الأسرى ثلاثين ألفا وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين ونجا ألفونس إلى طليطلة في أسوأ حال ثم أخذ يجمع الرجال ويستعد لأخذ الثأر فحاصره يعقوب في طليطلة وضيق عليه فخرجت إليه والدة ألفونس وبناته ونساؤه وبكين بين يديه فجاد عليهن بالمدينة وردهن مكرمات وعفا بعد المقدرة وعاد إلى قرطبة ثم جاءته رسل ألفونس يطلبون الصلح فصالحه.

وولي الملك بعد المنصور ابنه فاجتاز البحر إلى الأندلس من المغرب سنة ٦٠٩هـ – ١٢١٢م ومعه من الجنود وأهل المغرب ستمائة ألف مقاتل ولكن الله ابتلى المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب واستشهد أكثرهم وكانت تلك الهزيمة سبب ضعف الإسلام بالأندلس ومن ثم وثب أمراء البلاد كل في عمله واستجاش بملك المسيحيين بعضهم على بعض وسلموا الحصون إليه فمشت رجالات الأندلس وأعقاب العرب منذ الدولة الأموية وأجمعوا على إخراج الموحدين من الأندلس وساروا به لحين واحد وأخرجوهم وتولى ذلك "ابن هود الجذامي" الثائر بالأندلس وابن مردنيش وابن الأحمر وثوار آخرون (١١٣٥م) وتغلب ابن هود على شرقيي الأندلس ودخلت إشبيلية في طاعته وكان ابن هود يخطب للمستعصم بالله العباسي صاحب بغداد ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروب وخطوب إلى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكل فضايقه ألفونس فبعث بالطاعة لابن الأحمر فبعث إليه بن أشقليولة وتسلم مرسية منه وخطب لابن الأحمر بهائم خرج منها زاحفًا إلى الأحمر فأوقع به المسيحيون في طريقه وعندئذ رجع الواثق إلى مرسية ولم يزل بها إلى أن ملكها العدو من يده سنة ٦٦٨هـ وانقرضت دولة ابن هود.

بنو الأحمر:

قيل أصلهم من أرجونة ويعرفون ببني نصر وينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدين مُحَمَّد بن يوسف بن نصر ويعرف الشيخ وأخوه إسماعيل وكانت له وجاهة في ناحيتهم.

ظهر ابن الأحمر في أرجونة (من أعمال قرطبة) وتحصن بحصونها ومنها

مد فتوحاته وأقام مملكة لبثت قرنين ونصف قرن تمثلت فيها عظمة العرب بالأندلس ولقب ابن الأحمر نفسه بالسلطان وسمى عماله أصحاب المعاقل، وفي بداية أمره حالف فردناند الثالث ملك قشتالة ليعاونه على إسقاط ابن هود، وهذا قدم للمسيحيين ثلاثين حصنا ليؤازروه على منافسة ابن الأحمر وقامت حرب داخلية استفاد منها المسيحيون كل فائدة فدخلوا قرطبة عام ١٢٣٦ وسقطت بلنسية في أيديهم بعد سنتين من قرطبة وصارت لهم مرسية عام ١٢٤٦ وبعد حصار طويل سلمت إشبيلية (١٢٤٨) وهكذا عمل المسيحيون ظاهرًا على إسقاط ابن هود والواقع أنهم استغلوا ظرف المنافسة وعادت الفائدة عليهم دون غيرهم وما كانت معونتهم لابن الأحمر إلا ليجعلوا لهم خصما واحدًا بدل اثنين وما كان لابن الأحمر وبنيه إلا أن ينعموا بهذه المساعدة لأمد محدود.

كان من انشغال ابن هود في مقاتلة المسيحيين فرصة لابن الأحمر فضم إلى ملكه الأراك وجيانة وغرناطة ومالقة والمرية وأقام مملكة ثبت دعمائها وظلت قائمة رغم هجمات المسيحيين عليها وجعل ابن الأحمر غرناطة مقر ملكه ولقب نفسه الغالب بالله وشيد قصر الحمراء وقصبتها.

الحمراء

نقلا عن كتاب المطالعة للمدارس الثانوية:

على ربوة عالية من ربا سيرانفادة مشرفة على مدينة غرناطة قلعة فخمة تعرف بالحمراء أو القصر الأحمر أسسها ابن الأحمر في القرن الثامن الهجري لتسع وأربعين وألف لا غرو في ذلك فمساحتها خمسة وثلاثون

فدانا. وفي داخلها بني القصر الأحمر قصر العظمة وبيت الجلال ومعجزة الفن والمثل الأعلى للصناعة العربية وقصارى ما أبدعته يد الفنان ومنتهى ما وصلت إليه صناعة الإنسان.. أطلت منه الحضارة العربية، وقد أخذت زخرفها وازينت على أوربا وهي إذ ذاك موحشة مقفرة فكان ذلك أسطع دليل على أن الحضارة الغربية وليدة الحضارة الشرقية.

يرى السائر إلى ذلك القصر شبه أبراج مربعة تكاد تناطح السماء تكتنفها قباب دكناء كونتها الأشجار المحيطة بها إذا أتى على مدخله ألفى قواعده تخللها محاسن جمة وساحات فسيحات يغطي تربتها بساط أخضر من النبات فإذا ما تقدمت به قدماه رأى نفسه في القاعة المسماة ببيت القضاء وهي حجرة فسيحة الأرجاء كان يجلس فيها الخلفاء مع ذوي الرأي من رجالات الدولة للنظر في الدعاوى والظلامات أرضها من الرخام ونقوشها غاية في الإتقان وسقفها مكون من ثلاثة آلاف قطعة وصل بعضها ببعض بمهارة عجيبة يخالفها الرأي قطعة واحدة.. وآخر من جلس فيها ابن السراج وإليه تنسب هذه الحجرة وفيها قتل غيلة وعلى أرضها بقعة حمراء يقال أنها من دمه وقد ذهب بعض المتأخرين إلى أنها ليست بدم وإنما نشأت من اتحاد الماء بالحديد.

فإذا ما غادرت هذه الغرفة ألفيت فناء رحبا على أحد جانبيه قصر شارلكان الخامس غير تام البناء، ولهذا القصر قصة خلاصتها أن الحكام المسيحيين بعد خروج العرب من الأندلس اتخذوا القصر الأحمر مقرًا لهم فسولت لشارلكان نفسه أن يهدم جانبا منه ويقيم عليه قصرا يكسف ضوؤه نور الصناعة العربية فلم يتم له ما أراد لأن الطراز العربي بذ الطراز الإسباني..

هذا إلى أن القصر المسيحي زال طلاؤه وبليت أخشابه وتفككت أحجار قبابه أما القصر العربي فلم يطرأ عليه تغيير إلا ما أحدثه الإسبانيون بأيديهم من تشويه وتخريب ولا يزال لون ما أحدثه الإسبانيون بأيديهم من تشويه وتخريب ولا زال لون طلائه لامعًا زاهيًا وما برحت أبوابه ونوافذه وسقفه لا يجد البلى إليها سبيلا.

وعلى الجانب الآخر من هذا الفناء، البقية الباقية من الحمراء، وفيها قاعة الآس التي تأخذ بالألباب وهي توصلك إلى حجرة تعرف بصحن البركة فيها بحيرة جميلة احتوت أنواع السمك وفي وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها، ولا يغادر الزائر هذه الحجرة حتى يرى قاعة الخلافة يعلوها الوقار وتكسوها المهابة قد زينت بمختلف القباب وزخرفت بأبدع النقوش المموهة بالذهب.

وقرب هذه الحجرة غرفة زوج الخليفة وهي غرفة بديعة جنة النواظر وشرك الخواطر أرضها من الرخام الأبيض وسقفها مذهب وتشرف نوافذها على روضة ليس في استطاعة الإنسان أن يزجى وصفها ولو أوتي فصاحة سحبان.

ولعل أبدع ما في هذا القصر ذلك البهو المسمى بمقصورة السباع فإنك تخاله غاية بديعة من الأعمدة الدقيقة يتناثر خلالها رشاش الماء من فوارة السباع تناثر الشرر إذا اندلع به لسان اللهب وعلى حافة هذه الفوارة تماثيل السباع التي لم تحكم عرا الشبه بينها وبين السباع الحقيقية لأن صانعها راعى ما نهى عنه الدين من إقامة التماثيل المجسمة لكائنات حية.

دع ما بهذه الغرفة من قباب مختلفة ونقوش غاية في الإبداع وزخارف آية في الأحكام واسلك سبيلك من ذلك الباب المصنوع من الشبة تجد حجرة أبدعت فيها ريشة المصور فلا ترى إلا معجزات في الفن متشابهة وبدائع في الصناعة متماثلة.

أليس من حقك أن تعجب إذا علمت أن المجمع الفرنسي أثبت أن كل الزخارف صبت صبا، ثم أحكم اتصالها أحكامها جعل الرائي يعتقد أنها قطعة واحدة لا يرى فيها عوجًا ولا أمتا ولقد بلغ من إعجاب الإنجليز بهذا القصر أن أرادوا محاكاته فأقاموا مثيله بمدينة سدنهام حتى كان يخيل لزائره أنه في مدينة غرناطة يمتع ناظريه بالقصر الأحمر شكلا وإن كان أقل منه اتساعا ومما يؤسف له أن نارا التهمته فدمرته.

سر في رياض الحمراء ذات الأريج والزهر البهيج، وانظر كيف ذوى نبتها بعد أن أفل نجمها الدهر وتنكرت لها الأيام فأقبل الإسبان على جنة العرب الغيماء فانتزعوا كل ما أمكنهم انتزاعه من الحمراء وباعوه بثمن بخس دراهم معدودات وظنوا أن هذا يشفي غليل صدورهم ويذهب بأثار من كانوا سببا في تمدينهم، ولولا هواة من أهل الفن بحت أصواتهم في نداء الغرناطيين ولو علموا أن في مدينتهم أعجوبة من أعاجيب الزمان وتحفة من أجل التحف يجب حفظها من الحدثان لأتوا على بنيانها من القواعد.

وكان بنو مرين أصحاب المغرب الأقصى خير معين له على أعدائه وحدث أن خرج ملك قشتالة على الصداقة التي بينه وبين حليفه ابن الأحمر وسار إلى قرطبة فقاتله ابن الأحمر وانتصر عليه (٦٦٠هـ –

١٢٦١م) ومات ابن الأحمر (٦٧١هـ – ١٢٧٢م) ثم خلفه ابنه أبو عبد الله مُحَمَّد الملقب بالفقيه وكان عالما أديبا ناصر العلوم والآداب وفي عهده هاجم القشتاليون غرناطة بقيادة جونزاليز فاستنجد سلطان غرناطة حلفاءه بني مرين وبمساعدتهم انتصر على أعدائه نصرًا مبينًا وتمتعت غرناطة بالسلم إحدى عشرة سنة ثم جدد القشتاليون واستمر الحرب حتى ١٣٠٠ وكان مُحَمَّد منتصرًا في المعارك ومات عام (٧٠١هـ – ١٣٠٢م).

قام بعده ابنه مُحَمَّد وما لبث أن ثار عليه أخوه نصر وكان ضعيفا دفع المسيحيين عنه بالأموال فخلفه الناس وأقاموا أبا الوليد إسماعيل بن فرج ابن اسماعيل أخي ابن الأحمر (٧١٣هـ ١٣١٤م) وفي بداية حكمه انتصر القشتاليون على المسلمين مرارا ولكنه هزمهم هزيمة شديدة في إلفيرا[٧] عام (٧١٩هـ – ١٣١٩م) وكان المسيحيون في جيش كبير بقيادة خمسة وعشرين أميرًا بينهم أمير إنجليزي كان قد جاء في جيش من بني جنسه لنصرة المسيحية وقتل الجميع في هذه المعركة ومات إسماعيل بعد أن حكم البلاد إحدى عشر سنة.

وقام بعده ابنه أبو عبد الله مُحَمَّد واسترجع جبل طارق من المسيحيين ثم قتل غيلة وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف وكان عاقلا حكيما عادلا شجع العلم والأدب استمر ملكه إحدى وعشرين سنة نعم فيها القوم عامة وقتل بالجامع وهو يصلي (٤٣٣هـ – ١٣٥٤م) وخلفه ابنه مُحَمَّد الغالب بالله وكان خير نصير للعلوم والآداب.

---

٧ البيرة بالعربية.

واستعان على أعماله بوزيره ابن الخطيب لسان الدين مؤلف تاريخ الدولة الناصرية، وحدث له أن تغيب عن مقر ملكه وعند عودته وجد إسماعيل (أخوه لأبيه) كان قد اغتصب الملك فسار إلى إفريقية وأقام بفاس حتى علم بمقتل إسماعيل في ثورة داخلية فعاد إلى غرناطة وكان عصره حتى وفاته عصر هدوء وتقدم وعمران من الوجهين العلمي والاقتصادي (٧٩٣هـ – ١٣١٩م).

وفي عهد ابنه يوسف الثاني خلت السنون من الحوادث المهمة ثم آل الملك إلى ابنه يوسف الثالث ويمتاز عصره بالصلح المستمر بين المسلمين والمسيحيين وبموته انتهت أيام غرناطة البيضاء (٨٢٧هـ – ١٤٢٣).

سوء حال غرناطة:

أغار المسيحيون على غرناطة عام (٨٣٦هـ – ١٤٣٢) ونهبوا وخربوا ولكنهم هزموا في آخر أمرهم عند أرقيدونة ثم حول أسوار غرناطة ثم قامت حرب داخلية بين أمراء المسلمين استمرت خمس سنوات سفك فيها الدم الغزير وزاد الحالة سوءًا ما كان من غارات القشتاليين الذين هدموا البيوت وأحرقوا الحقول وهدموا القصور واستولوا على أرقيدونة وجبل طارق وهنا اعترف ابن اسماعيل سلطان غرناطة (وهو ابن علي ابن يوسف الثاني) بالخضوع لهنري الرابع وقبل أن يحكم باسمه ويدفع له جزية سنوية قدرها ١٢ ألف دينار.

الكفاح الأخير وسقوط غرناطة:

عقب وفاة ابن إسماعيل خلفه ابنه علي أبو الحسن، وكانت له زوجتان

إحداهما عائشة ابنه عمه ورزق منها أبا عبد الله مُحَمَّد والأخرى إيزابلا وهي إسبانية مسيحية وسماها الزهرة وقربها منه وكان أولاده منها موضع محبته وعنايته مما سبب حقد زوجته عائشة وابنها عليه وأدى ذلك إلى انقسام أهل غرناطة على أنفسهم وقامت بينهم حرب داخلية أضعفتهم.

وفي عصره تزوج فرناند أمير قشتالة من إيزابلا ملكة أرغونة عام ١٤٦٩ فقامت لهما مملكة مسيحية تشمل الإقليمين وليون أيضًا وكان الزوجان يتفقان في عدائهما الشديد للمسلمين وتعصبهم للمسيحية فصمما على طرد المسلمين من غرناطة آخر معقل للإسلام بالأندلس، فانتظرا حتى وطدا ملكهما ثم أتيحت لهم فرصة العمل.

أرسل فرناند رسله إلى غرناطة يطلبون الجزية فكان جواب أبي الحسن (لقد مات الملوك الذين قبلوا دفع الجزية أما أنا فجعلت من دار الضرب مصنعا للسيوف وأسنة الرماح) وما لبث أن قاد جنده ليلا ودخل الزهراء بغتة ولقد جر بذلك على نفسه وبلاده الشر الكثير وأدرك أهل غرناطة تلك العاقبة فقال بعضهم حان زوال ملك الإسلام بالأندلس.

هاجم المسيحيون حماه ودخلوها ونهبوا وقتلوا الرجال والنساء والأطفال ودخلوا ألبيو وحاول أبو الحسن أن يسترجعها وكاد يصل إلى غرضه ولكن ما كان من خروج ابنه أبي عبد الله مُحَمَّد بغرناطة في هذا الظرف أجبره على العودة إليها وعند وصوله وجد ابنه قد احتل الحمراء وأقام نفسه ملكا فخرج منها أبو الحسن وقصد مالقة وكان يحكمها أخوه (أبو عبد الله مُحَمَّد الملقب بالزاجل).

ولقد استطاع الزاجل أن يهزم جيشا مسيحيا دخل بلاده وعندئذ نزل أبو الحسن لأخيه عن ملك غرناطة فسار الزاجل إليها وعبثا حاول أن يصل إلى اتفاق مع بن أخيه وقامت حرب داخلية بينهم استفاد منها المسيحيون فأخضعوا جملة بلاد إسلامية منها: روندا، ومالقة.. وأجبروا أهلها من المسلمين على مغادرتها وقتلوا بعض من بقي منهم واستعبدوا الآخرين، ولما اشتبك الزاجل في حرب مع المسيحيين عمد أبو عبد الله إلى فتح ما بقي من مدن تخضع للزاجل ورغما عما أظهره هذا الرجل العظيم من شجاعة وكفاية، ورغما عن انتصاراته على فرناند مرارا شعر بحرج مركزه فسأل الإفريقيين المساعدة فلم يجيبوا سؤاله. وأخيرًا حاصره فرناندو وضيق عليه الحصار حتى كاد أهل غرناطة يموتون جوعا، وعندئذ سلمت غرناطة على شروط ما لبث الفاتحون أن نقضوها ونهبوا البيوت والمتاجر وطردوا الناس خارج المدينة وسلمت الحاميات الإسلامية وخرج الزاجل إلى إفريقية بعد سنة من هذه الحوادث وقام أبو عبد الله بحكم غرناطة بموافقة فرناند.

لم ينعم أبو عبد الله بخضوعه للمسيحيين طويلا فما كاد يخرج الزاجل من الأندلس حتى طلب فرناند إلى أبي عبد الله أن يسلم غرناطة فرفض وصمم المسلمون على القتال لآخر رجل فسار إليهم فرناند في جموع المسيحيين وأحرق غوطتها وهدم ما حولها من بيوت وقتل وسبى وقد المسلمين موسى بن أبي الغازان وانضم إليه إذ ذاك أبو عبد الله وخلصوا البلاد من المسيحية ولكنه كان خلاصا مؤقتًا إذ في ١٤٩١ – ٨٩٦هـ عاد فرناند بجيش عظيم من الرجال والفرسان وحاصر غرناطة. استمر الحصار ودار القتال والذي ساعد المسلمين على الثبات والمقاومة

استطاعتهم الحصول على المؤن عن طريق سيرانفادا وأن القتال في أغلب حوادثه كان مبارزة وكان النصر فيه على الدوام لفرسان المسلمين، ولما رأى فرناند أنه خسر خيرة رجاله صمم على الهجوم العام ومحاصرة غرناطة من جميع جهاتها فقلت المواد الغذائية داخل غرناطة وشعر الناس بالجوع (صفر ٨٩٧هـ).

وأرسل المسلمون رسلا يفاوضون المسيحيين في أمر الصلح فقبلوا على الشروط الآتية:

- يسلم المسلمون غرناطة في بحر شهرين ولهم في تلك المدة أن يخلصوا أنفسهم بالقوة
- يقدم ملك غرناطة ووزراؤه وقواده والفقهاء وأهل غرناطة عامة الطاعة لفرناند
- يمنح فرناند أبا عبد الله جزءًا من إقليم غرناطة تعويضًا له
- يتعهد المسيحيون بعد الاعتداء على أرواح وأملاك وسيوف وخيل المسلمين وألا يتدخل المسيحيون في أمر الإسلام والمسلمين فلا يهدم جامع ولا يمنعوا الناس من الصلاة
- أن يحكم العرب جماعة منهم ولا يدفع المسلمون إلا جزية واحدة وأن يطلق المسيحيون سراح الأسرى المسلمين
- أن يكون للمسلمين الحق في الخروج إلى إفريقية متى شاءوا.

وافق المسلمون على هذه الشروط إلا قائدهم موسى فإنه لم يثق بعهد المسيحيين وكان يفضل أن يموت المسلمون في ميدان القتال على أن

يصلبوا ويحاكموا أمام محكمة التحقيق (التفتيش وبدأت عملها في إشبيلية ١٤٨٠) ولما لم يوافقوه ألقى بنفسه في اليم وفي ٣ يناير ٢١٤٩٢ – ربيع الأول ٩٧٧ سلمت غرناطة وانقضى عصر الإسلام بالأندلس، وغابت شمس الحضارة والعلوم والفنون، وللإسلام تعزية في مصابه هذا بما كان من عاقبة روما ومصير الإغريق ونهاية الفرس، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

"قُلِ اللَّهُمَ مَالِكَ المُلْكِ تُؤتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير".

قيام المسيحية

سقط الهلال وأقيم الصليب على بروج غرناطة وخرج أبو عبد الله منها ثم نفي إلى إفريقية وأقام بفاس حتى وفاته عام ٩٤٠هـ – ١٥٣٨م. وما كاد يستتب الأمر للمسيحيين حتى عذبوا اليهود طمعًا في أموالهم وأحرقوهم ونفوهم، ثم نكلوا بالمسلمين وأجبروهم على اعتناق المسيحية ثم عملوا على استئصال شأفتهم فقتلوا الرجال وأحرقوا المساجد التي التجأ إليها النساء والأطفال، وكثيرًا ما دافع المسلمون عن أنفسهم وقاتلوا وانتصروا وفتحوا لأنفسهم طريقا للخروج إلى مراكش وتركيا ومصر، وخرج أكثرهم وأجبر من بقي على اعتناق المسيحية فأظهروا قبولهم، ورغما عن ذلك كانوا يساقون إلى محكمة التفتيش لأقل سبب واشتعلت النيران لإحراقهم في غرناطة وقرطبة وإشبيلية واتخذوا من بقي عبيدًا..

ولما آل ملك الأندلس إلى فيليب الثاني (١٥٦٨) أمر المسلمين

بتغيير لغتهم وعاداتهم وأسمائهم في يوم واحد، فثار المسلمون وقاتلوا ثلاث سنوات حتى أخضعهم دون جوان وقتلهم وأحرق منازلهم، وتابع فيليب الثالث خطة أبيه وأخرج من الأندلس إلى إفريقية نصف مليون من المسلمين وسار إلى فرنسا مائتا ألف ومنها ساروا إلى البلاد الإسلامية وهكذا خلت الأندلس من فاتحيها الذين أخرجوها من الظلمات إلى النور ومن عذاب الرومان والقوط إلى عدالة ونعيم الإسلام الحنيف وبدلوا جدبها خصبا وجهلها علما وأضاءوا العصر الوسيط فأبانوا الطريق إلى العصر الحديث والكل يعترف بما أصاب الأندلس وأهلها من خسارة عظيمة بخروج المسلمين منها.

الباب السابع

مجمل تاريخ الأدب العربي بالأندلس

من مذكرة الأدب العربي بالأندلس لفضيلة الأستاذ الإسكندري

لم يكد يلقي العرب ببلاد الأندلس عصاهم حتى نقلوا لغتهم إلى سكان تلك البلاد المسلمين منهم وأهل الذمة الذين أخذوا يتزلفون إليهم.

ولما كانت اللغة العربية حديثة عهد بهذه البلاد أخذت بها لونا يشبه لونها الذي اصطبغت به في بلاد المشرق غير أنها امتازت بشيء من الدعوة إلى العصبية واتخاذ منحى مخالف في تدوين العلوم ونظم الدواوين وضبط أمور السياسة والملك ووصف مستلزمات الحضارة ومناظر الطبيعة وغير ذلك مما يلائم بيئة الأندلس وجمالها.. كما امتازت بترجمة بعض الكتب من اللغات الأجنبية ومازالت اللغة ناضرة فتية يتأود غصنها حينا ويذبل حينا تابعا لأحوال الدولة العامة حتى اشتدت وطأة الغارات والكيد وانتقاص العدو أطراف البلاد رويدا رويدا إلى أن قضى الأمر ودالت الدولة.

وقد كانت معاني اللغة في جملتها عربية بدوية إسلامية في العصور الأولى من الدولة ثم تنوعت بعد إلى صور شتى، ومع ذلك فقد كانت بعيدة عن تهويل الفرس وإغراقهم في الخيال كما كانت المعاني الفكرية غاية في الصراحة.

أما عبارتها فقد كانت متينة جزلة خالية من التكلف ثم تأثرت بعد

بعدوى الصناعة البديعية كالجناس والسجع وتخير الألفاظ مع فارق في كل ذلك عن المشارقة فقد اكتفوا في تقليدهم بالسجع القصير الذي أسرفوا فيه حتى لا يكاد يخلو منه منثور وامتازت لغة التأليف عندهم بأنها أفصح منها عند المشارقة.

النثر

١- لغة التخاطب:

كانت العربية الفصيحة هي لغة التخاطب لدى العرب الخلص وبقيت كذلك عند الخاصة أكثر من نصف عمر الدولة، ولكن اللحن قد سرى إلى لغة العامة بمعاشرتهم للبربر والموالي من الوطنيين وغيرهم وبتوالي الأيام نشأت لغة تخاطب جديدة هي مزيج من العربية والبربرية والإسبانية وفشت حتى زاحمت الفصيحة لدى الخاصة بل استعملها العلماء في نظم بعض الموشحات وأعجب بها الملوك والأمراء. وفي النصف الثاني من عمر الدولة أخذت اللغات الوطنية تنقرض من جنوبي الأندلس لجلاء الذميين واليهود منها إلى شمالي إفريقية.

٢- لغة الخطابة:

كان لا بد لدولة كهذه في دور تكوينها الأول من جماعة من أهل البيان ممن يشعلون بألسنتهم نيران الأقدام ويحفزون الهمم ويحرضون الجبان ويجمعون الشمل ويبثون الدعوة وقد توافر هذا في أوائل الفتح فهذا طارق ابن زياد لم يقل في فصاحته عن سيادته العرب يشهد بذلك خطبته البليغة التي ذكرتها كتب الأدب وكانت ثمرتها الفتح والغلبة وفيها يقول:

"أيها الناس أين المفر: البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وقوته موفورة ولا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلات هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية"

ثم استمر يرخص أمامهم النفوس ويحبب إليهم الموت ويعدهم ويمنيهم بالغنيمة والثواب ولم يكد يأتي على آخرها حتى تحفزت القلوب للمخاطرة والنفوس للمغامرة وجاء نصر الله والفتح وكان لأمراء بني أمية وخلفائهم من العرب بقية من الفصاحة القرشية تشهد بذلك ألسنتهم وأنهم سلالة أولئك الأقوام الذين نزل القرآن بلسانهم من هؤلاء: عبد الرحمن الداخل وولده وحفيدته كالأمير عبد الله بن مُحَمَّد سابع أمراء الأندلس من بني أمية الذي يقول لأحد مواليه وقد اعتذر إليه "إن مخايل الأمور لتدل على خلاف قولك وتنبئ عن باطل تنصلك ولو أقررت بذنبك واستغفرت لجرمك لكان أجمل بك وأسدل لستر العفو عليك" ومنهم أيضًا المنصور بن أبي عامر المعافري وحديثه مع أبي عمر يوسف الشاعر مشهور في كتب الأدب.

وكان أهل الأندلس يكثرون من الخطب وإنشاد الشعر في الحفل وعند قدوم الوفود ويتولى الخطبة كبار العلماء، ومنهم قاضي الجماعة بقرطبة منذر بن سعيد البلوطي وأبو عبد الله بن الفخار وغيرهما ولم تلبث

الخطابة أن تراخي حبلها في دول البربر ومن بعدهم والتزم السجع والتكلف في أعدادها قبل إلقائها وفي أواخر أيام الدولة اقتصرت الخطاية على الجمعة والعيدين والزواج.

الكتابة والكتاب:

تشمل الكتابة كتابة الرسائل والتدوين والتصنيف وكانت الرسائل يتولاها الكاتب بإملاء الأمير وإرشاده، ولكن لم تعد للكتابة جزالة اللفظ وفخامة المعنى ووجازة العبارة وخلوصها من السجع غير أن بلاغتهم لم تنحط كثيرًا في أواخر أمرهم وأظهر ما امتازت به الكتابة في الأندلس عن كتابة المشرق شيوع الشكوى إلى رسول الله ﷺ من غلبة العدو والاستجارة بالموتى من الملوك المتقدمين فكانوا يكتبون الرسائل المطولة ويرسلونها مع الحجاج إلى قبر النبي ﷺ لتقرأ عليه، وكان ذلك في العصور الأخيرة عند اضطراب حبل المسلمين. كذلك كثر إنشاء الرسائل المطولة في المفاخرة بين شيئين من بلدان أو حيوان كما كثر استعمال المعاني الخيالية والأساليب الشعرية في رسائل المدح والذم والوصف.

وكانت منزلة الكاتب موضع التنافس، وقل أن يوجد كاتب أو وزير أو ملك ولم يجد نظم الشعر أو ضرب بسهم وافر في كل عالم وقد اشتهر بذلك كثيرون منهم أبو عثمان عبد الله وأمية بن يزيد من كتاب الأمير يوسف الفهري والوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك والفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان ولسان الدين بن الخطيب.

أما كتابة التدوين والتصنيف فقد طلع فجرها بعد أن وطد عبد

الرحمن الداخل أركان ملكه وكثرت الرحلات إلى المشرق للحج واقتباس العلم، وبذلك نقل العلماء إلى الأندلس أكثر ما صنف في علوم اللسان والدين وقد شجع الخلفاء والأمراء الكتاب وبذلوا الأموال في جمع الكتب ومكافأة المصنفين يدل على ذلك ما كان من عناية الحكم بن الناصر بالعلم والكتب ولم ينقض القرن الرابع حتى نبغ الألوف من العلماء وصنف من الكتب الجليلة ما فضلت به الأندلس بلاد المشرق، وكذلك جرى ملوك الطوائف في هذا المضمار وكان منهم الأدباء والمؤرخون كالمظفر صاحب التاريخ المظفري، وفي عهد البربر ركدت ريح العلم قليلا واستمرت كذلك حتى أباد الإسبان المسلمين وأحرقوا كتبهم وعفوا أثارهم.

ومن العلوم التي اشتغل القوم بها:

الأدب: وأخذه أهل الأندلس عن أدباء المشرق وكان لهم فيه كتب عدة من أمهات أصول الأدب كالأمالي والعقد الفريد وكتاب النوادر ومن الكتاب ابن بسام صاحب الذخيرة وابن فرج الحياني صاحب الحدائق وابن أبي الخصال صاحب سراج الأدب.

النحو: ونقله أهل الأندلس عن أئمة بغداد والشام ومصر ومن نحاتهم ابن حيان وابن عضفور وبن خروف ولم يكن للنحو سوق في عصر بني الأحمر.

اللغة: عني الأندلسيون بجمع المعجمات ومنهم أبو بكر الزبيدي الذي اختصر كتاب المعين وابن سيده صاحب المخصص وأبو علي القالي صاحب معجم البارع وغير أولئك كابن السيد البطليوسي وابن القوطية.

وتأخر الأندلسيون في الاشتغال بعلوم البلاغة، وفي طلب العلوم الشرعية ورحل كثير من علماء الأندلس إلى الشرق فنبغوا وممن كتبا في التفسير والحديث: أبو عبد الرحمن بن مخلد "صاحب التفسير الكبير"، وأبو مُحَمَّد مكي بن أبي طالب القرطبي "صاحب الهداية في بلوغ النهاية"، وعني الأندلسيون بعلم القراءات ورضوا في الحديث بالكتب الستة التي وضعها أئمة الحديث من الشارقة، وظهر في مذهب مالك أئمة راسخون كعيسى بن دينار، والقاضي أبو الوليد الباجي.

وكثر اشتغال الأندلسيين بعلم التاريخ ونبغ فيهم أمثال: أبو مروان بن حيان "صاحب كتاب المقتبس وكتاب الستين في ستين مجلدًا"، وأحمد بن مُحَمَّد الرازي، وأبو الوليد بن زيدون، وله كتاب في خلفاء بني أمية بالأندلس، ومن أصحاب كتب التراجم أبو بكر الزبيدي، وابن فرج، وابن بسام، والفتح بن خاقان.

وقلَّ النابغون من أهل الأندلس في العلوم الكونية، وذلك لأنه لما ترجم المشارقة كتب اليونان والرومان في الطبيعيات والفلسفة والمنطق ونقلت تلك الكتب إلى الأندلس لم يجسر أحد من العلماء على الاشتغال بها خشية أن يتهمه العامة بالزندقة حتى أن الملوك كانوا يضطهدون من يعرف بالاشتغال بها، ورغم ذلك اشتهر منهم فطاحل منهم ابن باجة وتلميذه مُحَمَّد بن الطفيل، وأبو الوليد بن رشد، وعباس بن فرناس أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة وحاول الطيران.

ولقد اشتعر كثيرون بالطب والصيدلة وعلم النبات ومن أشهر

علمائهم في الكيميا الذهبية والروحانية: المجريطي، وتلميذه ابن بشرون.

الشعر

لما هاجر العرب إلى الأندلس ونقلوا معهم أخلاقهم وعاداتهم وأدبهم وشعرهم نظموا الشعر في الأغراض التي كانت إذ ذاك بالمشرق كالحض على الجهاد والفخر والحماسة والدعوة إلى العصبية، ولما خمدت الفتن أصبح الشعر صناعة فئة من المتأدبين يكتسبون به في مدح الخلفاء والأمراء، وشجّعهم هؤلاء ببذل العطاء وتقريب مجالسهم واتخاذهم بطانة وندماء بل أعوانًا ووزراء، ونبغ كثير من النساء حتى بارين الرجال، ولا نكاد نسمع بفقيه أو متكلم أو فيلسوف أو طبيب أو مؤرخ إلا ونجده شاعرًا بليغًا صاحب بطولات ومقطعات في أغراض شتى غير أنهم مع هذا لم يشتهر فيهم من يبذ أمثال: بشار، وأبو نواس، والبحتري، والمعري بلاغة ومتانة وأسلوب؛ ذلك لأن أهل الأندلس عصابة منقطعة في جزيرة ألهاهم تكاثرهم في الغنى والنعمة عن إجهاد الفكر الرقيقة وأيضًا فلأنهم بعيدون عن ميدان التناضل العام بالمشرق ولانقطاع العلائق السياسية بين ملوكها وملوكه كانت شهرة شعرائهم مقصورة عليهم فلا تصل طبقة الشعر عندهم ودرجة إتقانه وجودته إلى ما وصلت إليه في المشرق، وسنذكر كلا من أغراضه ومعانيه وألفاظه وأساليبه تعرف صورة عامة عنه.

أغراضه: لما تمكن سلطان بني أمية وتأصلت الحضارة في البلاد نقلت إليها دواوين المشرق مفعمة بالشعر فسرت إليهم عدوى الشرقيين من الإغراق في وصف الخمر والغلمان والمحبوبة، ولم ينقض القرن الرابع حتى

نظم الأندلسيون في كل غرض نظم فيه الشرقيون غير أنهم زادوا عليه:

(١) الوصف بأنواعه فقد وصف الرياض والغياض والأنهار والأشجار والبحار والطيور والخضر والثلج والمطر وشروق الشمس وغروبها والأساطيل وسير الجيوش ونشوب المعارك والمصانع والقصور.

(٢) رثاء الممالك الزائلة والبلدان الساقطة.

(٣) الاستعانة والاستنجاد بالنبي صل الله عليه وسلم والصحابة ومن ذلك قول بعضهم.

أدرك بخيـــلك خيـــل الله أنـدلـــسا   أن السبيـــل إلـى منـــجاتها درســا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست   فلـم يـزل منـك عـز النصـر ملتمسًـا

(٤) نظم العلوم الفنون كالتاريخ والنحو والعروض ومن ذلك ألفية بن مالك واللامية والرائية للشاطبي.

ومن الأغراض التي نقصوا فيها عن المشارق نظم الشعر المشتمل على الحكم على مثال شعر المتنبي وأبي تمام، وكذا الشعر الفلسفي مثال شعر أبي العلاء.

أسلوبه: لم يخالفوا فيه أسلوب عرب المشرق وكانوا يهيبون ازدحام المعاني في اللفظ الواحد وأرق ما كان شعرهم في الغزل والاستعطاف وكان استعمال البديع في شعرهم مقبولا ورائجًا وكان لهم الذوق السليم في صوغ المجاز والاستعارة.

معانيه: يغلب على الشعر الأندلسي الخيال البديع وذلك نتيجة جمال

بلادهم وتدفق الحضارة عليهم وكان في شعر المشتغلين بالفلسفة والحكم والتصوف كثير من المعاني الدقيقة كما في شعر ابن أبي هانئ وابن عربي.

أوزانه وقوافيه: لم يحدث في المشرق تجديد في أوزان الشعر إلا ما كان من حدوث المواليا والدوبيت: أما الأندلسيون فقد أدخلوا أوزانًا شتى وسموا ذلك الموشحات وقد تساهلوا فيها حتى نظموا بعضها ممزوجًا بالعامية، وكان المخترِع للموشحات مقدر ابن معافر الفريري وأخذ ذلك عنه أحمد بن عبد ربه، ثم شاع استعمال الموشحات في دولة البربر ونهضت حلبة من الوشاحين أظهرت البدائع وكانوا كثيرين منهم ابن سهل الإسرائيلي الذي يقول في مطلع موشحته الشهيرة:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى   قلب صب حله عن مكنس

فهـــو في نـــار وخـــفق مثلمـــا   لعبت ريـــح الصبا بالقبـــس

ومن الأندلس انتقل فن التوشيح إلى الشرق فحاوله جماعة لم يبلغوا شأو الأندلسيين وأحدثوا أيضًا نوعا جديدًا هو الزجل إلا أنه لا يكون إلا عامًا محضًا وراح استعماله في دولة البربر وأعجب به الأمراء وأول من هذب أطوله وأكثر من أنواعه ونطمه في كل غرض أبو بكر بن قزمان القرطبي ونسج على منواله كثيرون مثل أبي الحسن سهل بن مالك وانتقل الزجل إلى أهل المشرق فأجادوه زمن المماليك.

الشعراء: شعراء الأندلس أكثر من أن يتناولهم الحصر، وكذلك نبغ كثير من الشواعر حرائرَ وإماءً، ومن مشهوريهم: ابن عبد ربه، وابن هانئ الأندلسي، وهو أبو القاسم مُحَّد بن هانئ الأزدي الأندلسي، ولد بإشبيلية

عام ٣٢٦هـ وراض نفسه على الأدب والشعر والفلسفة حتى أصبح شاعر العرب على الإطلاق ولما اتصل بعامل إشبيلية أيام المستنصر (الحكم بن الناصر) مدحه بمدائح رائعة فأجزل له العطاء ثم انصرف إلى المجون واللهو وغالى في دراسة الفلسفة حتى اتهم بالزندقة، وهمَّ القوم به لولا أن ارتحل إلى المغرب بإفريقية، ولما نما خبرة للمعز استقدمه واتخذه شاعر دولته، ولما رحل المعز إلى مصر تبعه ابن هانئ فنزل ليلة ببرقة حيث وافته المنية عام ٣٦٢هـ ولما بلغ المعز وفاته تأسف عليه كثيرًا وقال: "هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا" وهو القائل:

ممـــا دهانـــا أن حـــاضرنـــا أجفاننـــا والغائـــب الفكـــر

وإذا تدبرنـــــا جـــوارحنـــــا فـــأكلتهن العـــين والنظـــر

أي الحيـــاة ألـــذ عيشتهـــا مـــن بعـــد علمـــي أننـــا بشـــر

خرســـت لعمـــر الله ألســـننا لمـــا تكلـــم فوقنـــا القـــدر

ومنهم ابن شهيد وابن خفاجه، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن خفاجة أحد وصاف الطبيعة ولد سنة ٤٥٠هـ بجزيرة شقر (وهي بلدة بين شاطبة وبلنسية شرقي الأندلس) ونبغ في الشعر والكتابة ويمتاز شعره بوصف مناظر الطبيعة والحوادث الجوية بأخيلة بديعة وتشبيهات جميلة وتوفي عام ٥٣٣هـ ومن شعره يصف زهرة.

ومائسة تزهو قد خلـع الحـيا عليها حلى حمرا وأردية خضرا

يذوب لها ريق الغمائم فـضة ويجمد في أعطافها ذهبًا نضـرا

ومنهم ابن زيدون وابن عبد ربه والفتح بن خاقان وصالح الرئدي

صاحب القصيدة التي قالها في رثاء الأندلس ومطلعها.

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

وولادة بنت المستكفي الأموي وحمدونة الشاعرة وغير أولئك كثيرون.

نماذج من الشعر الأندلسي:

قال أبو عبد الله مُحَمَّد بن البطليوسي في الغزل:

غصبوا الصباح فقسموه خُدُودها واستنهبوا قضب الأراك قدودا
ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم فتقلدوا شهب النجوم عقــودا
واستودعوا حــدق المهـا أجفانهـم فسبـوا بهـن ضراغمــا وأسـودا
لم يكفهم حمـــل الأسـنة والظبـى حتى استعانـوا أعينــا ونهـودا
وتضــافروا بضفــائر أبدت لنـــا ضــوء النهــأر بليلـها معقـودا
صاغوا الثغور من الأقاحي بينهــا مـاء الحياةِ لـو اغتـدى مـورودا

وقالت حمده بنت زياد:

ولما أبى الواشــون إلا فـراقنـا وما لهموا عندي وعندك من ثــار
وشنوا على أسماعنا كل غــارةٍ وقل حماتي عنـد ذاك وأنصــاري
غزوتهمو من مقلتيك وأدمــعي ومن نفسي بالسيف والماء والنـار

شيء عن التوشيح والزجل.. عن مقدمة ابن خلدون

تقدم أن المخترع للموشحات ببلاد الأندلس مقدم بن معافر الفريري من شعراء الأمير عبد الله بن مُحَمَّد المرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر.

وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، وقد ذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهير يقول كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فما اتفق له من قوله:

بـــدر تم . شمـــس ضـــحا غصـــن نقـــا . مســـك شـــم

مـــا أتـــم مـــا أوضحـــا مـــا أورقـــا مـــا أنـــم

لا جـــرم . مـــن لمحـــا قـــد عشـــقا . قـــد حـــرم

وجاء مصليًا خلف القزاز "ابن ارفع رأسه" شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وبدأ موشحته بقوله:

العود قد ترنم. بأبدعِ تلحين وسقطت المذانب رياض البساتين

ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملثمين فظهرت لهم البدائع وسابق فرسان حلبتهم الأعمى التطليلي ثم يحيى بن بقي وللتطيلي من الموشحات المهذبة قوله:

كيـــف الســـبيل إلى صـــبري وفي المعـــــالم أشجـــــان

والـــركب في وســـط الفـــلا بالخـــرد النـــواعم قـــد بان

ومن الوشاحين أبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة ومن قوله:

إن سهيل الصباح في الشرق عاد بحرًا في أجمع الأفق

فـتداعـت نوادب الــورق أتراها خافت من الغرق

فسكنت سحرة على الورق

ومن أشهر الموشحات موشحة لسان الدين بن الخطيب ومنها:

جادك الغيث إذا الغيث همي يا زمان الـوصل بـــالأندلــس

لم يـكن وصــلك إلا حلــمًا في الكرى أو خلــسة المختلس

إذ يقــود الدهر أشتات المنى تنقل الخطـو على مـا يـــرسـم

زمــردًا بين فــرادى وثـــني مثل ما يدعو الوفـود الموســـم

والحيا قد جلل الـروض سـنى فــثغور الــزهر منــه تـبســـم

وروى النعمان عن ماء السـما كيف يروي مالك عـن أنــــس

فكساه الحسن ثوبـًا معـلـمـا يــزهــي مــنه بأبهــى ملـــبس

ومن أشهرها أيضًا موشحة ابن سينا الملك وهي:

كلي. يا سحب تيجان الربا بالحلى واجعلي. سوارها منعطف الجدول

دور

يا سما. فيك وفي الأرض نجوم وما كلما. أغربت نجمًا أشرقت أنجما

وهي ما.. تهطل إلا بالطلى والدمى

قفــلة

فاهطلي . على قطوف الكرم كي تمتلي   وانقلي . للدن طعم الشهد والفوفل

دور

تتقد. كالكواكب الدرى للمرتصد   يعتقد. فيها المجوسي بما يعتقد

فاتئد. يا ساقي الراح بها واعتمد

قفــله

وامل لي. حتى تراني عنك في معزل   قلل. فالراح كالعشقِ إن زاد يقتل

دور

من ظلم. في دولة الحسن إذا ما حك   فالسدم يجول في باطنه والندم

والقلم. يكتب ما سطر فوق القمم

قفــلة

من ولى. في دولة الحسن ولم يعدل   يعزل. إلا لحاظ الرشأ الأكحل

دور

لا أريم. عن شرب صهباء وعن عشق ريم فالنعيم. عيش جديد ومدام قديم

لا أهيم. إلا بهذين فقم يا نديم

قفــلة

وانهل. من كؤوس صورن من صندل أفضل. من نكهة العنبر والمندل

هل يعود. عيش قطعناه بوادي زرود والجنود في حضرتي تضرب جنكا وعود

والحسود.. في معزل غدا لا يسود

قفــلة

عذلي. لا تعذلوني فالهوى لذلي ما الخلي. في الحب مثل العاشق المبتلي

دور

أسفرت ليلتنا بالأنس مذ أقمرت بشرت بملتقى المحبــوب واستبشرت

شمرت.. فقلت للظلماء مذ قصرت

قفــلة

طولي. يا ليلة الوصل ولا تنجلي واسبلي. سترك فالمحبوب في منزل

دور المديح

يا نسيم. بلغ. سلام المستهام السقيم لكريم. طه. إمام المرسلين العظيم

عن أليم. وجدي به حدث وشوقي القديم

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله واستحدثوا فنا سموه بالزجل، وأول من أبدع فيه أبو بكر بن قزمان وكان لعهد الملثمين ومن الزجل قول الشاعر:

لي دهــر بعـــــشق جفونـــــك وأنت لا شفقة ولا قلـــب يلـين

حتى ترى قلبي من أجلك كيف	صنعة السكة ما بين الحـدادين
الـــدموع تـــرشرش والنـــــار	والمطـارق مـن شمـال ومـن يـمين
خـــــلق الله الـــنصـــــارى	وأنـت تغـزو في قلـوب العاشـقين

وقال بعضهم:

يا حادي العيس ازجر بالمطايا يا زجر	وقف على منزل أحبابي قبيل الفجر
وصيح في حيهم يا من يـريد الأجـر	ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر

وقال آخر:

عيني التي كنت ارعاكم بها باتت	ترعى النـجوم وبالتسهيـد اقـتاتت
وأسهم البين صابـــتني ولا فـاتت	وسلوتي – عظم الله أجركم. ماتـت

وبمناسبة الكلام على الموشحات نذكر أنه لم يقتصر قيامها في أهل الأندلس، بل قامت في الشرق في نفس العصر الذي قامت فيه الأندلس، وموشحة ابن المعتز التي أنشأها في القرن الثالث الهجري دليل على صحة ذلك؛ ولذلك ناسب أن نذكر ما جاء عن هذا الصدد في تاريخ الأدب الأندلسي للكيلاني حيث يقول:

"ولو لم يخترع الأندلسيون هذا النوع المسمى بالموشحات لاخترعه الشرقيون فقد كان حتمًا أن يؤدي الغناء ومجالسه في الشرق إلى نفس هذه النتيجة التي انتهى إليها في الأندلس".

"وفي موشحة ابن المعتز التي انشأها – كما قلنا – في القرن الثالث الهجري – أي في نفس القرن الذي اخترع فيه مقدم بن معافر الفريري

مخترع الموشحات في الأندلس موشحاته أكبر دليل على صحة ما نقول"

ومن موشحة ابن المعتز:

أيهـا السـاقي إليـك المشـتكى　　　قــد دعــوناك وإن لم تســمع

ونديم همت في غرته

وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جــذب الكــأس إليــه واتكــى　　　وســـقاني أربعًـــا في أربـــع

ومنها:

غصــــــن بان مــــــال　　　مــــن حيــــث التــــوى

مــــات مــــن يهــــواه　　　مــــن فــــرط الجــــوى

خفــــــق الأحشــــــاء　　　موهــــــون القــــــوى

كلمــا فكــر في البــين بكــى　　　ويحــه يبكــي لمــا لم يقــع

وختمها بقوله:

قــد نمــا حــبي بقلــبي وزكــا　　　لا تقــل في الحــب أني مــدعي

عموميات عن حال الأندلس في عهد العرب

تاريخ الإسلام للأمير علي

الحكومة: كانت السلطة العليا في إدارة شئون البلاد في يد الأمير أو الخليفة فيما بعد، غير أنه فوض أمر المالية والأعمال الخارجية ورفع المظالم

والإدارة الحربية إلى أربعة من كبار رجال الدولة، وسموا الوزراء، ولقد منح لقب وزير أيضًا إلى مستشاري الأمير أو الخليفة وتمييزًا للفريقين سمي كل من الأربعة الأولين ذا الوزارتين كما سمي رئيس المجلس الاستشاري الحاجب وكان رئيسا للوزارة وكان يجمعهم مجلس واحد.

وكان لكل مصلحة من مصالح الدولة كتاب ومنهم اختص البعض بكتابات الرسائل وسمي آخرون بكتاب الزمام ووكل إليهم رعاية غير المسلمين وحمايتهم وقام صاحب الأشغال بمراقبة الدولة وخراجها وفي عهد بني الأحمر بغرناطة سمي الوكيل وكان عليه جمع الخراج.

القضاء: كان لكل من أمهات المدن قاض وسمي قاضي قرطبة قاضي الجماعات (قاضي القضاة في المشرق) وكان لهم النفوذ التام والأمر النافذ والاحترام والإجلال.

الشرطة: حافظ على الأمن في مختلف البلدان ورجال الشرطة وقيل لرئيسهم العام صاحب الشرطة وكان له نفوذ كبير ولرئيسهم بالمدن صاحب المدينة كما قيل له أيضًا صاحب الليل وكان لقاضي المدينة حق الإشراف عليهم ومراقبتهم. ومن رجال الشرطة المحتسب وقام باختبار الموازين والمكاييل وراقب الأسواق وغرم المطففين ومنهم حراس الأبواب وعليهم قفلها بعد صلاة العشاء وكانوا مسلمين واستخدموا الكلاب لمساعدتهم على أداء وظيفتهم.

البحرية: سمي قائد السفن أمير الماء وفي عهد الناصر وخلفه قائد الأساطيل وكان للبحرية العربية شأن أيام الدولة الأموية وأيام الموحدين

وكانت قوتهم البحرية تعادل قوات الأمم المسيحية مجتمعة ويقول ابن خلدون أن ضعف البحرية كان من جملة الأسباب التي أدت إلى تدهور الخلافة العربية بالأندلس.

الزراعة: نالت الأندلس في عهد العرب أوفر نصيب من العناية بالزراعة فأخصبت وأثمرت وكانوا يطبقون العلم على العمل وحفروا الترع وأقاموا القناطر واستغلوا فلاحة الأرض بجد فجنوا ثمرة ما أخرجته أيديهم، ولقد وصلوا في أبحاثهم إلى معرفة أنواع الأرض وما يوافق كلا من الزروع وما تحتاجه من سماد فحولوا جدبها إلى حدائق وبساتين وحقول منتجة وإلى العرب يرجع الفضل في إدخال زراعة الأرز وقصب السكر والقطن والزعفران وبعض الخضر وكثير من الفاكهة في بلاد الأندلس، ومنها انتقل بعض تلك المزروعات إلى البلاد الأوربية وامتاز إقليم مرسية بأشجار النخيل وكثر العنب والتين في غرناطة ومالقة وعم الزيتون أنحاء البلاد خاصة فيما حول إشبيلية (ولما دخل فرناندو الأول إقليم إشبيلية عام ١٢٥٥م وجد به ملايين من شجر الزيتون ومائة ألف معصرة لزيت الزيتون).

المصنوعات: اشتغل العرب بصناعة الآلات الحديدية والصليبية واشتهرت غرناطة بصنع السيوف وإلى الأندلس أدخل العرب صناعة "الصيني" وكانت صناعة الجلود قائمة بينهم.

الصادرات: حوت صادرات الأندلس لهذا العهد: الذهب والفضة والنحاس والحرير المنسوج وغير المنسوج والسكر والزئبق والحديد والزيتون والمنسوجات الصوفية والزيت والكبريت والعقاقير. واشتغل العرب

باستخراج المرجان واللؤلؤ من البحار، والعرب أول من أدخل البارود وصناعة الورق إلى أوربا.

الفنون الجميلة: فاق العرب المسيحيين في النقش والتصوير والرسم فرسموا صورًا للاجتماعات الاستشارية وللمعارك الحربية وللفرسان ومناظر الصيد، وخير دليل على ما وصلوا إليه من رقي في تلك الفنون ما زينت به جدران قرطبة والزهراء والحمراء، ومن حيث العلوم لم تخل مدينة من مدرسة عليا ومدارس أولية، وكانت الجامعات بأمهات المدن وأهمها قرطبة وإشبيلية ومالقة وسرقسطة ولشبونة وسلامنكا.. ومن مؤرخي العرب بالأندلس نذكر ابن حيان وله مؤلفان في تاريخ الأندلس أولهما في عشرة أجزاء وثانيهما في ستين جزءًا، وابن الأبار (مات سنة ١٠٧٦) وأبا عبيد الله البكري وأبا القاسم خلف (ولد في قرطبة عام ١١٠١ ومات عام ١١٨٣) وابن السعيد وهو أبو الحسن علي (ولد في غرناطة سنة ١٢١٤ ومات سنة ١٢٨٧).

لسان الدين بن الخطيب

وهو مُحَمَّد بن عبد الله بن سعيد السلماني، وكنيته أبو عبد الله، ولقبه لسان الدين كان وحيد زمانه في الكتابة والإحاطة بالعلوم الدينية والفنون الأدبية والحكمة العقلية ولد سنة ٧١٣ ونشأ بغرناطة وكان والده قيما على مخازن الطعام عند ملوك بني الأحمر فنشأه أحسن تنشئة حتى أجاد القرآن حفظًا وتجويدًا في العربية وآدابها والعلوم الشرعية والفلسفية والطب.

اتصل بالسلطان أبي الحجاج (من ملوك بني الأحمر) ومدحه بغرائر المدائح فقلده سره ولم يستكمل سن الشباب ثم آلت إليه الوزارة وكذلك

كانت منزلته عند ولده ثم عند (تغلب) ولده الثاني غير أن عقارب الوشاية دبت في نفوس أعوانه فقبض عليه واستولي على أمواله إلى أن شفع فيه ملك المغرب سنة ٧٦١ فانتقل إلى بلاد المغرب مع سلطانه المخلوع وهناك لقي أهلا وسهلا ولما رجع السلطان المخلوع إلى ملكه بالأندلس ثانية سنة ٧٦٣ طالبه بالعودة معه فأجاب بالسمع والطاعة فسافر معه حيث ألقى إليه مقاليد دولته فقام فيهما مثال الناصح المخلص غير أن بطانة السوء أخذت تكيد له ثانية فاظلم الجو بينه وبين سلطانه فلم يسمع إلا الرجوع إلى المغرب فحل سلطانها في المقام الأول وأحسن استقباله.

وعاد الأعداء للوشاية واتهموه بالزندقة عند ابن الأحمر فأوفد في طلبه من سلطان المغرب فأبى، ولما هلك عاود ابن الأحمر الطلب له إلى أن قبض عليه وقتله وكان في ذلك انتهاء محنته.

وابن الخطيب عالم أديب شاعر كاتب فيلسوف طبيب رزق الإحاطة بكل فن والدراية بكل علم حتى بلغت مؤلفاته نحو الستين وهو صاحب (كتاب الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة) وكتاب (رقم الحلل في نظم الدول) وله في كل علم وفن مؤلفات تشهد نبوغه وطول باعه.

وابن خلدون وعاش أهله في إشبيلية طويلا ولما استولى عليها ابن أدفونش (فرديناند الثاني) عام ١٢٤٨ أخرجوا من الأندلس إلى تونس وبها ابن خلدون عام (٧٢٣هـ – ١٣٣٢م) وهو أبو زيد عبد الرحمن بن أبي بكر مُحَمَّد. ولما بلغ العشرين من عمره صار وزيرًا لأبي إسحاق الثاني الحفصي ملك تونس ثم صار إلى بني مرين وقام بأمر ملكهم أبي أمين

(١٣٥٦) وأقام بفاس وسار إلى غرناطة سنة ١٣٦٢ كسفير في مملكة قشتالة ثم مضى سنين في كتابة تاريخه وفي سنة ١٣٨٢ دخل القاهرة وبعد سنتين صار رئيس قضاة المالكية، وفي عام ١٤٠٠ كان في جيش تيمورلنك ومات بالقاهرة في شهر مارس سنة ١٤٠٦ وكان بلغ من العمر ٨٤ سنة ولقبه ابن خلدون يرجع جده العاشر وهو من قبيلة يمنية من أهل حضر موت.

وقد نبغ من النساء في العلم والأدب كثيرات منهن: ولادة، واعتماد الرميكية زوجة المعتمد، وحسانة التميمية ابنه أبي الحسن الشاعر، وأم العلا (والأخيرتان عاشتا في القرن السادس الهجري) وعمة العزيز الملقبة بالشريفة، وحفصة الراقونية ابنه حمدون، ومريم ابنة أبي يعقوب الأنصاري، وغيرهن.

ومن فلاسفة العرب وأطبائهم أبو بكر مُحَّد ابن يحيى الصائغ وهو من تجيب وأقام بسرقسطة ونبغ في الطب والفلسفة والرياضيات وعلم الفلك والموسيقى، ومات بفاس عام ٣٣٥هـ ١١٨٣م.

وابن الطفيل "أبو بكر مُحَّد بن عبد الملك بن طفيل" وكان من أشهر الفلاسفة وكان شاعرًا عظيمًا ولقي إكرامًا زائدًا من أبي يعقوب يوسف ثاني ملوك الموحدين ومات في مراكش عام ٥٨١هـ ١١٨٥م وكتابه "حي بن يقظان" من القصص الفلسفية وترجم إلى اللاتينية. وابن زهر (أبو بكر الأيادي) وهو من إشبيلية من أسرة نبغ أفرادها في العلم والطب وتقلدوا أرقى المناصب، وكان ابن زهر طبيب أبي يوسف المنصور ومات عام ٥٩٥هـ – ١١٩٩م).

وابن رشد، وهو أبو الوليد مُحَّد بن أحمد بن رشد ولد عام (٥٢٠هـ

١١٢٦م) وكان أبوه وجده من قضاة الإسلام في عصر المرابطين وكان ابن رشد على صداقة مع أبي مروان بن زهر وابن طفيل وعين ابن رشد قاضيًا لإشبيلية ثم صار قاضيًا لقرطبة ومات في صفر (٥٩٥ – ١١٩٨م).

الخاتمة

مما شيد عظمة الدولة الأموية الفتوحات الإسلامية لذلك العهد التي جعلت للإسلام عالما مترامي الأطراف نشر فيه مدنية وعلما ودينًا جديدًا، ونقصر الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس وإذا ما رجعنا ما تقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس، ويرجع فضل ذلك إلى جرأة طارق وإقدام موسى بن نصير، ثم لا نلبث أن نرى عودة هذه القائدين ومصير الأندلس إلى الولاية، وكان خروج موسى عام ٩٦هـ واستمر حكم الولاة حتى عام ١٣٨هـ وفي تلك المدة الوجيزة تعددت الحوادث المهمة ومما يلفت الأنظار:

تعدد الولاة وظهور العصبيات، وهذه عادة العرب إذا ما استقر بهم الفتح وقعدوا عن الحرب والقتال مما يؤدي حتمًا إلى تفرق الكلمة وضعف القوة، ثم نرى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا في فتح الأندلس، وكان جزاؤهم سوء معاملتهم ففقد العرب بذلك أنصارًا أشداء مخلصين، وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة وكان عهدهم حديثًا بتلك البلاد البعيدة عن مقر الخلافة الإسلامية.

كان من الطبيعي أن تؤدي تلك الحال إلى الفوضى والثورات الداخلية، وليس أدل على ذلك مما كان من أمر صميل وأبي الخطار وثورة جند الشام ومصير الإمارة إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري، ثم كان ما

كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين وانقسام الناس على بعضهم البعض مما جعل المؤرخين يقولون أن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفًا على بلاد الأندلس أو عديم الوجود وما كان للأمويين في آخر سنيهم بالمشرق أن يعيروا الأندلس أي اهتمام لما أحاط بهم بالمشرق من ظروف.

وبينما كانت الأندلس تسير في حالتها هذه دبر الأمويون بها نقل الإمارة إلى أميرهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، واستعانوا بجند اليمن وبعض البربر ودخل عبد الرحمن الأندلس وانتصر على يوسف وصارت له الإمارة فشيد ملكًا للأمويين دام ثلاثمائة من السنين ويقسم بحسب حالته إلى عصر التأسيس ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام وظهر كل منهم بمظهر الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف فنرى الداخل يخضع الثورات بقوة السيف ويغزو الشمال حيث كان المسيحيون وتطلبت إليه الظروف أن يبني ملكًا على حكم استبدادي المكانة الأولى فيه للسيف وتبعه على سياسته من خلفه ولما كان هذا النوع الحكومي لا يتفق مع أهواء العرب نرى أنهم كانوا يخضعون صاغرين مادام السيف مشهورًا، وإذا ما أغمد ثاروا وعلموا على استرجاع حرياتهم.

تعددت الثورات في عصر الداخل نفسه وتآمر عليه بعض رجاله وأهله ولكنه انتصر عليهم وأهم ما نجده في عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب ملك بلاد الأندلس وانتشاره فيها مما أدى إلى تطلع الفقهاء إلى زعامة سياسية تتفق مع منزلتهم الدينية وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك فاتخذوا من حلم هشام وطيبة خلقه

فرصة ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بشيء مما أرادوا قاد يحيى بن يحيى وعيسى بن دينار وغيرهما طلبة العلم حرصا بقوته وعاقب الخارجين شديد العقاب.

وبموت الحكم بن هشام وانتقال الإمارة إلى ابنه عبد الرحمن الثاني يبدأ عصر ضعف يتناول حكم مُحَمَّد بن عبد الرحمن ثم المنذر وعبد الله ولدى مُحَمَّد بن عبد الرحمن وكاد ذلك العصر ينتهي بسقوط ملك الأمويين بالأندلس وأسباب ذلك الضعف ترجع إلى:

(١) اشتغال عبد الرحمن عن ملكه بتجميل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيى بن يحيى والسلطانة طروب ونصر الخصي فتسربت الفوضى إلى البلاد فأدرك ما كان من خطأه وأسرع إلى إصلاح ما فسد.

(٢) وفي عهد مُحَمَّد بن عبد الرحمن الذي أصبح أميرًا على الأندلس على حسب رغبة الخصيان والموالي بقصر الخلافة كره الناس الإمارة لسوء سياسة الأمير وموقفه هذا من شعبه شجع بعض الأقاليم على الخروج فاستقلت طليطلة نظير مبلغ من المال تدفعه سنويًا وما لبث أن بسط موسى الثاني نفوذه على أرجونة والأقاليم الشمالية، وكان ذلك بمساعدة ألفونسو الثالث، ولا شك في أن تدخل المسيحيين في أمر المسلمين كان له أثر سيء للغاية كما أن استنجاد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم البعض، ثم تمكنت ماردة من إحراز انفصالها عن إمارة قرطبة، وهذه الحال بتلك البلاد شجعت ابن حفصون بإقليم ريّا على مقاتلة الإمارة الإسلامية،

ولقد سببت حروبه ضعفًا شديدًا لها ونتج عن ذلك كله أن سقطت هيبة الإمارة.

(٣) كانت إمارة المنذر أقصر من أن تدفع شرًا أو تعيد إلى الإمارة عظمتها الأولى ولما آل الملك إلى عبد الله بن مُحَمَّد ساءت الحال جدًا: قامت العصبيات وبلغ ابن حفصون وأمثاله قوة عظيمة وعمل أمراء العرب على الانفصال عن الإمارة فعمت الفوضى وأصبح ملك الأمويين على قلب قوسين أو أدنى من السقوط، وفي هذه الحال مات عبد الله بن مُحَمَّد، وخدم بلاده بذلك أجل خدمة إذ أفسح المجال لحفيده عبد الرحمن الناصر.

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس واستمر العصر الذهبي مدة الناصر والحكم الثاني المستنصر ومدة حكم المنصور بن أبي عامر وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المأمون وفي ذلك العصر خلقت الأندلس خلقا جديدًا: تبدل ضعفها إلى قوة فأخضعت الثورات وأعيدت الولايات المستقلة إلى الطاعة وسارت الجيوش إلى بلاد المسيحيين شمالي الأندلس وأذلتها ولم ينل منها الفاطميون مأربًا وسارت البلاد في طريق الحضارة والعمران خطوات واسعة.

وإذا كان المنصور بن عامر وصل بالبلاد إلى درجة عظيمة من القوة والمجد فإنه أساء إلى الأسرة الأموية بطعنها طعنة نجلاء في صميم فؤادها، وذلك بما كان من أمره مع هشام الثاني حفيد الناصر وتمهيد الحكم لولديه الواحد بعد الآخر فلما عجز ثاني الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير

بالبلاد سيرة أبيه قتل وانتقلت البلاد إلى عصر يعرف بعصر الفوضى.

(٤) وعنوان العصر كاف للدلالة على سير الحكم الأموي بالأندلس إلى سقوطه الأخير ومميزات هذا العصر:

* تنافس الأمراء من أحفاد الناصر وأعقابه على الخلافة واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين وكانت تلك الحال خير فرصة لهؤلاء.

* انتقال النفوذ من يد الخليفة إلى الوزراء وقواد الجند الذين سعوا لإدراك أغراض شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقل اهتمام فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من الخلافة.

* ظهور دولة بني حمود بمالقة وانتقال الخلافة إليها وصارت لعلي بن حمود أولا ثم لأخيه القاسم بن حمود ثم ليحيى بن علي بن حمود ثم للقاسم ثانية ثم ليحيى الثاني مرة ولكنهم لم يفلحوا في الاحتفاظ بالخلافة.

* بداية عودة الإمارات إلى الانفصال عن قرطبة وإعداد الطريق لقيام حكم ملوك الطوائف ففي عهد المستعين المرواني اقتصرت سلطة الخلافة على قرطبة وثلاثة مدن حولها ثم كانت خلافة المرتضى ثم المستنصر ثم المستكفي ثم هشام الثالث ثم أمية وضعف أمرهم أدى بالناس إلى التفكير في إسقاط الأسرة الأموية نهائيًا وقام بذلك زعيم من قرطبة يدعى ابن جهور.

* ولا بد أن نضيف إلى ما تقدم من أسباب ما كان من موقف المسيحيين العدائي نحو الإسلام وعملهم المتواصل على استخلاص البلاد من أيديهم وانتهاز كل فرصة ممكنة لإسقاطهم وطردهم ويقول لينبول أن

من شر ما ارتكبه العرب من خطأ إهمال أمر المسيحيين من بدء الأمر.

* ونختم جملة الأسباب بما كان من تغير كلي للخلق العربية مما أدى بهم إلى نسيان شجاعتهم وعدم التمسك بدينهم والانغماس في الترف والنعيم والكيد لبعضهم البعض وقعودهم عن نصرة بعضهم لبعض.

لم يغن قيام حكم ملوك الطوائف شيئًا: كثرة عددهم دل على ضعفهم وصغر ملكهم وتنافسهم أدى إلى حرب متواصلة بينهم ذهبت بريحهم وكانت حالتهم خير أمنية للمسيحيين الذين استولوا على البلاد وفرضوا الجزية على الإسلام وأذلوا الموحدين ولم تعمر طويلا.. وفي آخر عهد الإسلام بالأندلس اقتصر الأمر على دولة بني الأحمر بغرناطة فشيدت أثرًا باقيًا ومجدًا دونه لها التاريخ فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابتها الفتن الداخلية، وكانت المسيحية وصلت إلى عظمة قوتها على يد فرناند وايزابلا فأسقطا المعقل الأخير من المعاقل الإسلامية وبادت دولة الإسلام بهذه البلاد بعد أن قامت بأجل الخدمات للمدنية والحضارة والعلم والعمران وكل المؤرخين على اختلاف جنسياتهم يشهدون لها بذلك..

ونختم تاريخ الإسلام بالأندلس بأبيات من القصيدة الشوقية الشائقة التي في مطلعها يقول أمير الشعراء

اختلاف النهار والليل ينسى　　　اذكرا لي الصبا وأيام أنسى

ومنها:

أيـن (مـروان) في المشـارق عـرش   أمـوي وفي المغـارب كـرسـي

سـقمت شمسـهم فـرد عليـها   نورهـا كـل ثاقـب الـرأي نطـس

ثم غابت وكل شمس سوى هاتيك تبلى وتنطوي تحت رمس

ثم يذكر قرطبة فيقول:

قرية لا تعد في الأرض كانت   تمسك الأرض أن تمـيد وترسـي

قدسًا في البلاد شرقًا وغـربًا   حـجة القـوم من فقـيه وقـس

وعلى الجمعة الجـلالة والنـا   صر نور الخميس تـحت الدرفس

ينزل التاج عن مفارق (دون)   ويـحـيى به جـبين (الـبرنس)

سنة من كرى وطـيف أمان   وصحا القلب من ضلال وهجس

وإذا الدار ما بها من أنيـس   وإذا القـوم ما لهـم مـن محـس

ومما جاء عن غرناطة

من لحمـراءجـللت بغبـار الـدهـر   كـالجرح بـين بـرء ونكـس

كسـنا الـبرق لـو محـا الضـوء لحظـا   لمحتهـا العيـون مـن طـول قـبس

حصـن غرناطـة ودار بـني الأحمـر   مـن غافـل ويقـظان نـدس

سرمـد شيـبه ولـم أر شيـبـا   قبلـه يرجـئ البـقاء وينسـى

مشـت الحـادثات فـي غـرف الحمـراء   مشـي النـعش فـي دار عـرس

هتكـــت عـــزة الحـــجاب وفـــضت سـدة البـــاب مـــن سميـــر وأنـــس

إلى أن يقول

أخــر العهــد بالجـــزيرة كانــت بعد عرك مــن الزمــان وضــرس

فتراهــا تقــول رايـــة جيــــش باد بالأمـــس بين أســر وحـــس

ومفاتيحهـــا مــــقاليد مـــــلك باعها الوارث المضـــيع ببخـــس

خـــرج القــوم في كتائـــب صـــم عن حفاظ كموكب الدفن خرس

ركبــوا البحــار نعشــا وكانــــت تحت آبائهم هي العـــرش أمـــس

تمت كتابة هذه المذكرات يوم الإثنين ١٦ شوال ١٣٤٨ الموافق ١٧ مارس عام ١٩٣٠،

حسن مراد

الفهرس